المعالج
النفسي
والجن
د.بديع القشاعلة

المعالج النفسي والجن

مجموعة حوارات بين المعالج النفسي وأشخاص
اصابهم الجن وفقاً لما يتصورون

د. بديع الزمان القشاعلة

مركز السيكولوجي للنشر والتوزيع
فلسطين
النقب – 2024

إهداء إلى كل الذين عانوا في هذه الحياة

أتمنى أن تتحسن احوالهم وأن تكون معاناتهم أجراً لهم في الآخرة

اللهم اغفر لي ولوالديّ

آمين

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، خالق السماوات والأرض وما بينهما، مدبر الأمور، ورازق العباد. نحمده سبحانه على نعمه التي لا تُحصى، ونستعينه في كل شؤون حياتنا، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، الذي أرسله الله رحمةً للعالمين، وهدىً للضالين. قد أُوتي الحكمة والبلاغة، وكان مثلاً أعلى في الأخلاق والكرم. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، الذين نشروا رسالته الكريمة في أرجاء المعمورة، وقدموا أسمى معاني الوفاء والإخلاص، أما بعد:

في عالم يكتنفه الغموض وتتشابك فيه الأساطير مع الحقائق، يظل الإيمان بالجن وقصصهم حاضراً في الذاكرة الجمعية لكثير من الشعوب، ويمتد تأثيره ليلامس جوانب الحياة النفسية والعلاجية. هذا الكتاب يسلط الضوء على الاعتقاد السائد بأن الجن قد يكون سبباً للاضطرابات النفسية والعقلية،

ويستعرض دور العلاج التقليدي، مثل العلاج بالقرآن، في معالجة هذه الحالات وكذلك العلاج بالشعوذة والسحر. يتناول الكتاب قصصاً وتجاربَ متنوعة لأشخاص اعتقدوا بتلبس الجن. يطرح الكتاب تساؤلات هامة حول مدى مصداقية هذه الادعاءات وتأثيرها على المريض، وأيضاً عن التحدي الذي يواجه الأطباء والمعالجين في التمييز بين الحالات المرضية الحقيقية والأعراض المعتقد أنها بفعل كائنات خفية. كما يتناول الكتاب تأثير هذه المعتقدات على الصحة النفسية للمجتمع. يتخلل الكتاب قصص وأمثلة لحالات شُخصت بأنها مسٌّ أو تلبس، حيث يُروى على لسان أناس اعتقدوا أنهم تحت سيطرة قوى غامضة، وتستعرض قصصهم الصراع بين الذهاب إلى الأطباء النفسيين أو اللجوء إلى الرقاة والمعالجين الشعبيين. إضافةً إلى ذلك، يسعى الكتاب لتسليط الضوء على كيفية تفاعل المجتمع مع هذه الحالات، وكيف ينعكس ذلك على طبيعة التعامل مع الأمراض النفسية بشكل عام.

المؤلف

[1]

.... يجلس "توفيق" في غرفة الانتظار، متهالكًا على كرسي خشبي، يُظهر تعبه وتوتره للعيان. يتراقص ضوء المصباح في سقف الغرفة على جدرانها الباهتة، ليلقي بظلال رمادية على وجهه المتجهم.

عيونه تتجول في المكان، باحثة عن شيء غير محدد، ربما إجابة، وربما مخرج من متاهة أفكاره. تلامس نظراته ساعة الحائط القديمة، عقاربها تتحرك بتثاقل، وكأنها تعانده، تسخر من قلقه الذي يتفاقم مع كل ثانية تمضي. "تيك... تاك..."، صوت العقارب يُسمع بوضوح في صمته الداخلي.

كان يرتدي قميصًا رماديًا باهتًا، وبنطالاً أسوداً وحذاءً قديمًا. شعره الذي غزاه الشيب يتدلى بشكل عشوائي على جبهته المتعرقة، كما لو أن كل شعرة تحمل ثقل سنوات من التعب والهموم. يضغط على كفيه تارةً، ويطقطق أصابعه تارةً أخرى، بينما يتحسس بخجل مسبحته الصغيرة التي تتدلى من جيب

بنطاله. يتنفس بعمق، وكأن كل زفرة يطلقها هي محاولة للتخلص من شيء يتشبث بصدره، لكنه دون جدوى.

في تلك اللحظة، يُفتح الباب ببطء، ليظهر المعالج النفسي. رجل في منتصف الأربعينيات، يرتدي قميص أزرق، ونظاراته تُبرز عمق عينيه الهادئتين. يدخل إلى الغرفة بخطوات ثابتة، وعيناه تبتسمان قبل شفتيه. يتوقف لبرهة عند المدخل، يلقي نظرة سريعة على "توفيق"، وكأنه يحاول قراءة ما يجول في ذهنه من وراء تلك النظرات.

يبتسم المعالج النفسي، ويميل برأسه قليلاً، قائلاً بصوت هادئ:

- "أهلاً بك، سيد "توفيق". تفضل بالدخول، يُسعدني أنك أتيت."

يرفع "توفيق" رأسه ببطء، عينيه متسعتان، وكأنهما تائهتان في عالم آخر، قبل أن يُعيد بصره إلى الرجل الواقف أمامه. كانت ملامحه تعكس حذرًا، ممزوجًا ببعض الأمل الممزوج بالخوف. يتردد للحظة، ثم يقف بتثاقل، متوجهًا نحو باب المكتب

بخطوات مثقلة، وكأن قدميه مقيدتان بسلاسل من الشك والريبة.

حين دخلا المكتب، التفت المعالج النفسي إليه مرة أخرى، مشيرًا بيده إلى الكرسي المقابل لكرسيه:

- "تفضل، اجلس لو سمحت."

جلس "توفيق" ببطء، وكأن الجلوس ذاته قرارٌ يحتاج إلى تفكير طويل. نظر حوله للحظات، كانت الغرفة تعج برائحة القهوة الطازجة، والجدران مزينة بأرفف كتب ملأت المكان، تنطق بالحكمة والخبرة، وبعض الشهادات. وعلى الجدار المقابل، عُلّقت لوحةٌ كبيرة لمنظر هادئ. وكأن المعالج النفسي أراد أن يجعل من هذه الغرفة ملاذًا آمناً.

التقط المعالج دفتر ملاحظاته وابتسم مجددًا:

- "حسنًا، لنبدأ. أخبرني، "توفيق" ... ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

ظل "توفيق" صامتًا للحظة، ينظر إلى الأرض، ثم رفع رأسه ببطء.

- "لا أعرف من أين أبدأ، دكتور. هناك أشياء... تحدث لي... أشياء لا أستطيع تفسيرها."

مال المعالج النفسي برأسه قليلاً إلى الأمام، وكأن كل حواسه مُركزة على كلماته:

- "خذ وقتك. أنا هنا للاستماع. لا داعي للاندفاع، كل ما تريد قوله مهم."

تنهد "توفيق" بعمق، وكأنه يحاول أن يسحب الهواء من عمق صدره المليء بالألم.

- "الأمر بدأ منذ سنوات... ربما منذ أن كنت شابًا. كنت أسمع أصواتًا، أرى ظلالًا تتحرك حولي... في البداية ظننت أنها مجرد أوهام، لكن مع الوقت... أصبحت أقوى."

هزّ المعالج رأسه بتفهم، دون أن يقاطعه. استمر "توفيق":

- "كانت تظهر لي في كل مكان، في المنزل، في الشارع، حتى في أحلامي. كنت أستيقظ ليلاً مذعورًا، أرى وجوهًا مشوهة، أشخاص يهمسون بأشياء..".

فسأل المعالج النفسي بصوت منخفض:

- "وماذا كنت تفعل حينها؟"
- "ذهبت إلى شيخ معالج في قريتنا. إنه معروف... ويعرف كيف يتعامل مع الجن والسحر. في البداية، لم أصدق. لكن عندما جلست أمامه، شعرت بشيء غريب. كأنه يعرف كل شيء عني. بدأ يقرأ عليّ آيات وأدعية، وفجأة... بدأت أرتجف، شعرت بجسدي وكأنه يُسحب مني."

ساد صمتٌ ثقيل، قبل أن يضيف "توفيق" بصوت خافت:

- "قال لي إنني ممسوس... وأن هناك جني يحاول أن يؤذيني. أحيانًا كنت أشعر به يهمس لي في أذني..."

ارتسمت على وجه المعالج النفسي تعابير اهتمام ممزوجة بحذر. كان يعلم أن "توفيق" بحاجة لأن يفرغ ما في داخله دون أن يشعر. بعد لحظات من الصمت، سأل بهدوء:

- "وهل شعرت بتحسن بعد زيارته؟"

ارتعشت شفتي "توفيق"، ثم قال:

- "نعم... في البداية. كنت أشعر وكأنني تحررت. لكن، بعد فترة... عادت الكوابيس، عادت الأصوات. بل

أصبحت أقوى. ثم ذهبت إليه مجددًا، وقال لي إن الجن قد عاد، وإنني بحاجة إلى جلسات علاجية أخرى. بدأت أزوره كل أسبوع تقريبًا، وكل مرة أشعر بالتحسن، لكن لا شيء يدوم."

توقف "توفيق"، ينظر إلى المعالج بعينيه المتسعتين، وكأنه يبحث عن إجابة، عن أمل.

- دكتور... هل تظن أنني جننت؟ ما الذي يحدث معي؟"

ابتسم المعالج برفق، ووضع دفتره جانبًا، ثم قال:

- "لا، يا "توفيق". أنت لست مجنونًا. لكن ما تمر به قد يكون له تفسير آخر. ليس كل ما نراه أو نسمعه حقيقةً، أحيانًا تكون عقولنا هي التي تلعب دورًا كبيرًا في صنع هذه الصور."

انكمش "توفيق" في مقعده، ثم همس:

- "لكن... الشيخ أخبرني أنني ممسوس... وأن هناك من يتربص بي.

تنفس المعالج النفسي، ثم قال بصوت مطمئن:

- " أفهم تمامًا لماذا تصدق كلامه. نحن نميل إلى تصديق ما يُفسر لنا ما نعجز عن فهمه. وعندما نشعر بالخوف أو القلق، يصبح عقلنا أرضًا خصبة لهذه المعتقدات. أحيانًا، الشعور هو أقوى دليل، لكنه ليس بالضرورة دليلاً حقيقيًا. يمكن أن يكون ما شعرت به هو انعكاس لقلقك، لخوفك، لأفكارك التي سيطرت عليك. دعني أسألك، هل حدث هذا كله في فترةٍ كنت تشعر فيها بالتوتر، أو الحزن؟"

ظل "توفيق" صامتًا للحظات، ثم قال بتردد:

- "ربما... نعم، أعتقد ذلك. بعد أن فقدت عملي... وبعد وفاة والدي."

أومأ المعالج النفسي ، قائلاً بلطف:

- "هذا هو المفتاح، يا "توفيق". الحزن، الفقدان، القلق، كل هذه المشاعر يمكن أن تجعلنا نرى ونسمع أشياء لا وجود لها. ليست أوهامًا، بل هي تجارب حقيقية في عقولنا، لكنها تأتي من داخلنا، وليس من الخارج."

صمت "توفيق"، غارقًا في التفكير...

[2]

... عندما بدأ "عماد" في التحدث عن الشيخ الذي "عالجه"، اتسعت حدقتا عينيه وتبدلت ملامحه من الذعر إلى ما يشبه الاحترام المشوب بالرهبة. أخذ نفسًا عميقًا، وكأنه يستعد لاستدعاء صورة رجل كان له تأثير ساحر على كيانه.

- "الشيخ... لا أحد مثله. حين رأيته لأول مرة، كنتُ مجرد شاب ضائع، مُشتت، وممزق بين شعوري بأنني مريض وبين إحساسي بأني محاط بقوى خفية. سمعتُ عنه كثيرًا. يقول الناس إنه قادر على رؤية ما لا يُرى.

جلس المعالج النفسي في مقعده، منصتًا، ناظراً إلى "عماد" بإمعان. لم تكن عيناه تحملان شكًا أو سخرية، بل فقط اهتمامًا صافيًا يترقب ما سيأتي.

- "عندما وصلت إلى بيته لأول مرة، شعرتُ بشيء غريب في الهواء... لا أستطيع وصفه. كان البيت صغيرًا، ولكنك تشعر وكأنك تدخل مكانًا مقدسًا. كان مملوءًا بالبخور، رائحة المسك تفوح في كل زاوية، وتنتشر في أرجاء المكان كأنها سحابة. صوت تلاوة القرآن يأتي من ركن ما، هادئًا، متقطّعًا..."

أخذ "عماد" لحظةً ليغمض عينيه، مسترجعًا التفاصيل بدقة:

- "كان الشيخ يجلس في غرفةٍ ضيقة، مضاءة فقط بضوء خافت. كان طويل القامة، نحيلاً، لكن حضوره كان قويًا. كان يرتدي جلابية سوداء وطاقية بيضاء... كانت عيناه غامضتين، تلمعان بضوء غريب، وكأنهما تخترقانني."

ابتسم "عماد" بخفة، وكأنه يشعر بنوع من الراحة وهو يسرد تلك الذكريات:

- "عندما جلستُ أمامه، لم أنطق بكلمة واحدة، لكنه عرف كل شيء. نظر في عيني لثوانٍ، ثم قال:
- "أنت تعاني، أنت ممسوس".

ارتجف قلبي. كيف عرف ذلك؟ كنتُ متأكدًا أنه يرى ما لا أراه. بدأ بتلاوة آيات من القرآن، ثم قال لي أن أغمض عينيّك. شعرت بحرارة غريبة تتصاعد في جسدي، وكأن شيئًا ينسحب مني. قال لي بعدها:

- "لا تقلق، هذا الجني لن يضرك" .

ظل المعالج النفسي صامتًا، مسجلًا ملاحظاته، ثم سأل بصوت هادئ:

- "وماذا حدث بعد ذلك؟ هل شعرت بتحسن؟"

هزّ "توفيق" رأسه بسرعة، وكأنه تذكّر شيئًا مهمًا:

- "نعم.. كانت الأعراض تختفي لبعض الوقت. شعرت براحة لم أشعر بها من قبل. لم أعد أرى الكوابيس، لم أعد أستيقظ مذعورًا. كان هذا التحسن كأنه نعمة، وكأنني تحررت من ثقل كبير..."

توقف للحظة، ناظراً إلى الأرض بتمعّن، وكأنه يخشى أن ينبش ما تبقى من ذكرياته.

- لكن الأعراض عادت. ذهبت إليه مرة أخرى، فقال إن الجن عاود الهجوم، وإنني بحاجة إلى المزيد من

الجلسات. كان يطلب مني أحيانًا أن أردد آيات معينة، أو أن أشرب ماءً قرأ عليه أدعية معينة. وكنت أشعر بذلك الارتياح مجددًا، لكنه كان يرتحل عني سريعًا."

أمال المعالج النفسي رأسه قليلاً، ثم قال:

- "أكمل؟"

فأكمل:

- مرة كنت جالسًا، وبدأت أرتعش. شعرت وكأن قوة خارقة تدفعني. لم أستطع السيطرة على جسدي. الشيخ قال لي إن الجني يحاول المقاومة، ثم فجأة، شعرت بشيء ينزع من داخلي، كأنما هواء كثيف ينسحب من جسدي. بعدها، توقفت الارتعاشات، ووجدت نفسي في حالة من السكون. الشيخ قال لي إن هذا هو الكيان الذي كان يؤذيني، وإنه قد رحل."

رفع المعالج حاجبيه قليلاً، ثم قال بهدوء:

- "وهل حدث هذا مرة أخرى؟"

صمت "توفيق"، نظر إلى الأرض مرة أخرى، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يجيب:

- نعم... لكنني لم أشعر بالراحة بعدها. عدتُ له مراتٍ ومرات، وكان يطلب مني تكرار الطقوس نفسها. كنت أشعر بالراحة لبعض الوقت، ثم تعود الأعراض، حتى أصبحت أقوى من قبل.

أومأ المعالج برفق، ثم قال:

- "إذن، ما يمكنني فهمه من حديثك، أن التحسن كان مؤقتًا. كلما شعرت بتحسن، كانت الأعراض تعود. أليس كذلك؟"

هزّ "عماد" رأسه ببطء:

- "نعم، لكنني لم أكن أملك خيارًا. كنت أذهب إليه على أمل... ربما فقط على أمل... أن يختفي هذا كله. حتى لو كان لثلاثة أيام فقط."

ابتسم المعالج بلطف، ثم قال:

- ""عماد" ، ما مررت به ليس تجربة فريدة. هناك الكثير من الأشخاص الذين يمرون بتجارب مشابهة. العقل البشري قوي جدًا، ويمكنه خلق تجارب حسية بناءً على إيماننا بشيء معين.

رفع "عماد" نظره، مدهوشًا:

"ماذا تعني؟"

أخذ المعالج النفسي نفسًا عميقًا، ثم قال:

- "تأثير الوهم هو قدرة العقل على إحداث تحسن في حالة الجسد أو المشاعر لمجرد إيمانك بأن ما تتلقاه هو علاج حقيقي. عندما ذهبت إلى الشيخ، كنت تؤمن بأنه يستطيع علاجك، أليس كذلك؟"

هز "توفيق" رأسه بحذر:

- "نعم، بالطبع."
- "هذا الإيمان كان كافيًا ليحدث تغييرات مؤقتة في حالتك. شعرت بالراحة، لأن عقلك صدق أن هناك شيئًا يحدث بالفعل. لكن بعد فترة، عندما بدأ الشك يعود، أو عندما لم تقتنع بما كنت تمر به، عادت الأعراض. هذا هو تأثير الوهم. هو ليس كذبًا، بل تجربة حقيقية، لكنها ناتجة عن إيمانك، وليس عن شيء خارجي."

انعقد حاجبا "عماد"، وكأنه يحاول فهم ما يُقال له، ثم قال:

- "لكن... ما الذي يعنيه هذا؟ هل تعني أن كل ما شعرت به كان... مجرد وهم؟"

هزّ المعالج رأسه بسرعة، وقال:

- "لا أقصد ذلك. ما شعرت به كان حقيقيًا، لكن مصدره لم يكن ما تعتقده. هناك تفسير علمي لكل هذا. القلق، التوتر، الحزن، كلها مشاعر يمكن أن تُترجم إلى أعراض حسية. يمكن أن تجعلك ترى ما هو غير موجود، تشعر بما لا يُلمس. ما أقترحه عليك هو أن نبدأ بفهم هذه المشاعر أولاً، ثم نرى كيف يمكننا التعامل معها بطريقة تضمن أن الشعور بالراحة يدوم، وليس مجرد تأثير مؤقت."

ظل "عماد" صامتًا، يتأمل الكلمات، وكأنها تغوص في أعماق عقله لتثير تساؤلات لم يطرحها من قبل. بدأ يشعر بشيء جديد... شيء بين الشك والاقتناع...

[3]

...ارتعشت شفتا "خالد"، وكأن مجرد استعادة الذكرى يحرك شيئًا مرعبًا داخل أعماقه. انخفض صوته قليلاً، وبدت نبرته وكأنها آتية من مكان بعيد، مكان موحش يعج بالظلام. جلسته التي كانت متوترة من قبل أصبحت أكثر انكماشًا، وعيناه ضيقتان تسبحان في بحر من التوهان، وكأنه لا يزال عالقًا في ذلك اليوم المشؤوم.

- "لن أنسى ذلك اليوم أبدًا، دكتور. حين وصلت إلى بيت الشيخ، كانت الرياح تعصف وكأنها تحمل أصواتًا من عالم آخر. عند الباب، شعرت بشيء ثقيل يجثم على صدري. طرقته، وفتح لي بنفسه، كانت نظراته حادة، لم يتكلم، أشار لي بالدخول، وكأنه كان يعرف ما كنت أعانيه قبل حتى أن أتكلم."

توقف "خالد" للحظة، متشبثًا بذراعيه، وكأن جسده يقاوم استرجاع ما حدث. ابتلع ريقه بصعوبة، ثم استأنف:

- "أدخلني إلى غرفة في المنزل، الضوء خافت بعض الشيء.

التفت المعالج النفسي قليلاً، مركزًا نظراته على "خالد"، وسأله:

- "هل كنتما وحدكما؟"

هز "خالد" رأسه سريعًا:

- "نعم... لكنني لم أشعر بأنني وحدي أبدًا. كان هناك شيء آخر.... وضعني الشيخ على سرير في منتصف الغرفة، طلب مني أن أخلع حذائي، وأن أضع يديّ على بطني وألا أحركهما مهما حدث. بدأت أشعر بالخوف يتسرب إلى كل جزء في جسدي، لكنني لم أجرؤ على الاعتراض. عندما وقف أمامي، لم ينظر إليّ. بل بدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم فجأة، نظر مباشرة في عينيّ."

انخفض صوت "خالد" إلى همسة، وكأن استرجاع هذه اللحظة جعله يخشى حتى من ذكرها بصوت مرتفع:

- "كانت عيناه... لا أدري كيف أصفهما. كأنهما حفرتان سوداوان، تمتلئان بسوادٍ لا نهاية له. شعرت وكأنني أغرق فيهما، كأنهما تسحبانني. حاولت أن أغلق عينيّ، لكني لم أستطع. كنت كالأسير، لا أتحرك، لا أستطيع النظر بعيدًا. ثم حدث شيء لم أكن أتوقعه."

أخذ "خالد" نفسًا عميقاً، محاولاً استجماع شجاعته لمواصلة الحديث:

- "اقترب الشيخ مني ببطء، ثم، وبلا سابق إنذار، مدّ يديه إلى رقبتي وبدأ يخنقني! في البداية، ظننتُ أنه نوعٌ من الطقوس الغريبة، وأنه سيتوقف بعد ثوانٍ، لكنه استمر. كانت يداه قويتين، تضغطان على حنجرتي بشدة. شعرتُ بأنفاسي تتقطع، بدأت أختنق، وبدأتُ أرتجف. حاولت أن أحرر نفسي، لكنني لم أستطع. كان جسدي كله متجمداً، وكأنني مشلول."

بدأ "خالد" يحرك يديه بشكل لا إرادي، وكأنه يحاول دفع شيء غير مرئي بعيدًا عنه. بينما المعالج النفسي يراقبه بصبر، دون أن يقاطعه.

- "شعرتُ وكأن شيئًا في داخلي يتحرك، كأن هناك كيانًا كان يصرخ، يقاوم. ارتفع صوته في رأسي، لم يكن صوتي، بل صوت آخر، غاضب، مرعب. بدأت أرى ظلالًا تتراقص على الجدران، وكأنها تخرج من فمي. ثم قال الشيخ بصوت لم أسمعه من قبل، بصوت كأنه قادم من أعماق الأرض:
- "اخرج، اخرج أيها الجني! "

أخذ "خالد" نفسًا آخر، وبدأ يهز رأسه، وكأنه لا يصدق ما حدث:

- "كنت أشعر وكأنني أموت. كل شيء فيّ كان يصرخ. عيناي كانتا تدمعان، وجسدي كله يرتجف. ثم، فجأة، شعرت وكأن شيئًا ما ينفجر في داخلي. شعرت به، كأنه دفقة من الهواء البارد، خرجت من فمي واختفى كل

شيء. يداه انزاحتا عن رقبتي. كان قلبي يدق بسرعة وكأنني هربت لتوي من الموت."

كان المعالج النفسي لا يزال مستمعًا بصبر، يحافظ على تعابير وجهه الهادئة، سأل بهدوء:

- "وكيف شعرتَ بعدها، "خالد" ؟ هل انتهى كل شيء؟"

ابتسم "خالد" ابتسامةً مشوشة، ابتسامة شخص لا يزال يبحث عن إجابة:

- "شعرت براحة لم أشعر بها من قبل، وكأن حملاً قد أُزيل من فوق كتفيّ. قال لي الشيخ إن الجني قد غادرني، وإنه لن يعود أبدًا إذا بقيت ملتزمًا بالصلاة والطقوس التي أعطاني إياها."
- "وهل استمر هذا الشعور؟" سأل المعالج بلطف.
- لا، يا دكتور. لم يستمر. بعد أسبوعين فقط، بدأت الكوابيس تعود. ذهبت إلى الشيخ، قال لي إن الجن لم يغادرني تمامًا، وإنني بحاجة إلى جلسات أخرى.

صمت للحظة، ثم أضاف بصوت خافت:

- "لكن هذه المرة، لم أشعر بالراحة بعدها. كل مرة، كان الخوف يزداد، وكأن شيئًا يتغذى على قلقي. لم أعد أنام، لم أعد أتناول الطعام. بدأت أفقد وزني، وبدأت أشعر بالضعف أكثر فأكثر."

أومأ المعالج النفسي ببطء، ثم قال بصوت خافت:

- عندما كنتَ تحت ضغطٍ شديد، شعرت بأن هناك كيانًا حقيقيًا بداخلك. لكن عندما خنقك الشيخ، كان عقلك يحاول الهروب بأي طريقة، فاختلق تجربة خروج الكيان، ليوفر لك لحظة من الراحة. هذا النوع من التجارب، رغم رعبه، ليس دليلًا على وجود شيء خارجي. إنه العقل الذي يحاول الدفاع عن نفسه، حتى وإن أدى ذلك إلى إيذاء جسدك."

نظر "خالد" إلى المعالج بنظرة طويلة، حائرة، وكأن شيئًا داخله يتصارع. هل كان ما يقوله الشيخ مجرد كذب؟ وهل كان كل ما شعر به من قبل مجرد خدعة؟ لكنه، في داخله، لم يستطع التخلص من ذلك الشعور بأن ما مر به كان حقيقيًا، حقيقيًا أكثر من أي شيء آخر.

[4]

... في قاعة الانتظار، جلس "سليم" على كرسيه محدقًا في الجدران الصامتة، وكأنها تسأله عن سرّ مجيئه. كان الحاضر يضغط عليه كما لو أن كل ثانية تجر خلفها أطنانًا من الأفكار. تداخلت أصوات الخارج مع نبضات قلبه المتسارعة، قبل أن يسمع اسمه ينادى بهدوء، معلنًا لحظة الدخول.

بخطوات مثقلة بالتردد، عبر "سليم" الباب ودخل الغرفة. هناك كان المعالج النفسي جالسًا ، يدعوه للجلوس على الكرسي الجلدي المقابل. ضيقٌ غير مرئي خنق الجو، بينما استقرت عيناه على المعالج، وارتجف صوته قليلاً وهو يستعيد ذكرى لقائه الأول مع الشيخ. كان صوته يحمل مزيجًا من الخوف والغموض، وكأن الذكريات تجرّه نحو بحر عميق لا قرار له، يفيض بالرهبة التي سيطرت عليه حينها.

جلوسه أمام المعالج النفسي لم يكن مجرد خطوة نحو الشفاء، بل مواجهة لأعمق مخاوفه التي كانت تختبئ في زوايا ذاكرته، تترصد الفرصة لتعاود الظهور.

بهدوء مطمئن، ابتسم المعالج النفسي وسأله: "كيف حالك؟". لم يكن السؤال مفاجئًا، لكنه بدا ثقيلًا في صدر "سليم"، كأن الكلمات التي سيختارها للرد ستحمل معه كل ما أخفاه طوال هذه السنوات.

توقف المعالج لحظة، ثم تابع بصوت هادئ ومتوازن: "سأسألك السؤال الروتيني المعروف... لماذا أنت هنا؟."

شعر "سليم" بأن السؤال كان مفتاحًا لباب ثقيل ظل مغلقًا لسنوات، وعيناه راحتا تتفحصان الأرض، وكأنه يبحث هناك عن الإجابة. ثم قال:

- " لقد كنت اتعالج عند الشيخ.. وأول مرة التقيت فيها به، كان كل شيء يبدو مختلفًا... كنت قد سمعت عنه من أناس أعرفهم، يقولون أنه يستطيع أن يتعامل مع السحر والجن... كنت مترددًا، غير متيقن. كيف لي أن أصدق ذلك؟

توقف "سليم" لبرهة، تائهًا في ذكرى ذلك اليوم، قبل أن يتابع بحذر، وكأنه يخشى أن تعود المشاعر القديمة من جديد.

- ذهبت إلى بيته. كان بيتًا قديمًا، بنيت جدرانه من الباطون، تحيط به أشجارٌ متشابكة، وكأنها أذرع تحرسه من أي طاقة سلبية تحاول الاقتراب. طرقته بتردد، فُتح الباب ببطء، ورأيت رجلاً مسنًا، نحيل البنية، كان طويل القامة, بلا لحية. عندما التقت عيني بعينيه لأول مرة، شعرت بقشعريرة تسري في جسدي. كان في نظراته شيء غامض، شيء يجعلني أشعر وكأنني طفلٌ يقف أمام قاضٍ يقرأ كل خطاياي دون أن أنطق بكلمة.

لمع شيء من القلق في عينيه، كأن مجرد وصف ملامح الشيخ يعيد له شيئًا من سلطته. ثم أكمل:

- سألني، دون أن يُعطي نفسه فرصةً لتحيتي، بصوت عميق، لكنه ثابت: أنت "سليم"، أليس كذلك؟

كيف عرف اسمي؟ لم أخبره قط. حينها، بدأت أشعر أنني أمام شخص مختلف... شخص لا يُستهان به.

أومأ المعالج برأسه، لكنه لم يتكلم. اكتفى بمراقبة حركات وجه "سليم"، منتظرًا استمراره.

لم أنتبه إلى نفسي إلا وأنا أجيبه:

- نعم، أنا هو.

أشار لي بيده، وكأنه يأمرني بأدب أن أدخل. دخلتُ إلى مجلس صغير، كان مليئًا برائحة البخور. في الزوايا كانت هناك قطعٌ أثرية، تمائم قديمة. جلس على الأرض، وأشار لي بالجلوس أمامه. في تلك اللحظة، شعرت وكأن كل حركة، كل نظرة، كانت محسوبة. كأنه يختبرني، يقرأ أفكاري. كانت نبرته ترتجف مع كل كلمة، وكأن اللقاء لم يكن مجرد حديث، بل مواجهة بين قوتين. بمجرد أن جلست، لم يُمهلني وقتًا لالتقاط أنفاسي. نظر في عينيّ مباشرةً، وكأن كل ما حولنا قد اختفى، وقال بصوت كالصدى:

- أنت لست وحدك.

جفّ حلقي. لم أفهم ما كان يقصده، لكنه تابع:

- هناك كيان في داخلك... جني يتلبسك. إنه يعيش معك منذ وقت طويل، يمتص طاقتك، يضعفك.

انعقدت عضلات وجه "سليم"، وارتفع حاجباه، وكأنه يستعيد لحظة الرعب التي اجتاحته في تلك اللحظة .

- شعرت وكأن الهواء من حولي يتثاقل، صدري بدأ يضيق. لم أتمكن من الرد. اكتفيت بالنظر إليه. شعرت بشيء يشبه الرعب.

كان المعالج النفسي يستمع بصمت، حاجباه معقودان، وكأنما يحاول تفكيك كل كلمة يقولها "سليم" بعناية شديدة.

- وماذا فعل بعد ذلك؟" سأله بلطف، وكأنه يحثه على التعمق أكثر في ذاكرته.

تنفس "سليم" بعمق، وكأن كلمات الشيخ لا تزال تتردد في أذنيه.

- طلب مني أن أستلقي على السرير، أن أغلق عينيّ وأبقى صامتًا مهما حدث. لم أعرف ماذا أفعل. شعرت بالتردد، لكن عينيه كانتا تخترقانني. أغلقت عينيّ، وبدأ يتمتم بكلمات لم أفهمها، وكأنها طلاسم قديمة، لغة غريبة، كأنها مزيج من العربية والهمسات. كلما تلا تلك

الكلمات، شعرت بشيء بارد يسري في جسدي، كأن هناك يدًا خفية تمر على أطرافي.

خفض صوته أكثر، كأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- ثم، فجأة، شعرت وكأن حنجرتي تُسحب إلى الداخل، وكأن شيئًا بداخلي يحاول الهروب. بدأت أشعر بألم حاد في صدري، وبدأت أتلوّى. كان يضع يديه على رأسي، يضغط بقوة. قلت له: 'توقف، هذا مؤلم!' لكنه قال بصوت قاطع:
- "اصمت! هذا الجني يحاول المقاومة. إذا تحدثت، فسوف يتشبث بك أكثر".

تسارعت أنفاس "سليم"، وعيناه اتسعتا، كأنه يرى نفسه ممددًا هناك مجددًا.

- بدأت أختنق، وكأن الهواء يُسحب من رئتيّ. جسدي كله كان يرتجف. ثم، فجأة، أزاح يديه عن رأسي، وقال بصوت غاضب:
- "أخرج! أخرج أيها اللعين!"

- شعرت بشيء يتحرك في داخلي، يصرخ، يريد أن يهرب. ثم، وبلا سابق إنذار، شعرت بحرارة شديدة في صدري، كأن نارًا اشتعلت في داخلي، ثم... خرجت.

توقف لوهلة، ثم قال بصوت أشبه بالهمس:

- أحسست كأن الهواء كله عاد فجأة، كأن شيئًا قد انزاح عن روحي. فتح عينيه، نظر إليّ، وقال:

- لقد رحل. لكن احذر، هو لم يغادر إلى الأبد. إذا لم تلتزم بما سأعطيك، سيعود، وسيعود أقوى.

رفع "سليم" عينيه إلى المعالج النفسي ، نظرة يملؤها الحيرة والخوف..

أخذ المعالج لحظة للتفكير، ثم قال بلطف:

- الشيخ كان يستخدم نوعًا من التنويم الإيحائي، طريقة لجعل عقلك يصدق أن هناك شيئًا ما يحدث في داخلك. أنت لم ترَ الجن بعينك، صحيح؟ لكنك شعرت به. هو استخدم أساليب نفسية قوية، التلاوة، الضغط الجسدي، الكلمات التي تمس عقلك الباطني، ليجعلك تعتقد أن هناك كيانًا بداخلك. هذا ما يُعرف

بالتأثير الإيحائي... عندما يبدأ عقلك بتصديق شيء، يصنع تجربة حقيقية جدًا، لدرجة أنك تشعر بها في جسدك، وتعيشها بكل تفاصيلها.

ظل "سليم" صامتًا، تفكيره غارق في كلمات المعالج. لم يبدُ مقتنعًا تمامًا، لكنه لم يعارض أيضًا....

[3]

...كانت "ليلى" تجلس أمام المعالج النفسي الذي اختارته أخيرًا بعد أشهر من التردد والخوف. كانت شابة في نهاية العشرينات، بوجه شاحب وعينين غائرتين تحملان في طياتهما خوفًا عميقًا. محجبة، نظرتها المضطربة كانت تُشعرك وكأنها تتحدى العالم بأسره.

نظرت إلى المعالج للحظات، ثم إلى الحائط خلفه، حيث علقت لوحة بسيطة لمشهد طبيعي ، وكأنها تبحث عن شيء يُخفف من قلقها. لاحظ المعالج كل حركة صغيرة، كل ارتعاشة في أصابعها وهي تشبك يديها في حجرها.

ابتسم ابتسامة مطمئنة، وقال بصوت رقيق:

- تفضلي، خذي وقتك يا "ليلى". لستِ بحاجة إلى استعجال الأمور، أنا هنا للاستماع.

رفعت "ليلى" نظرها إليه ببطء، وكأنها لم تكن تتوقع منه هذا التفهم. كانت عيناها تحملان قلقًا وتوترًا، كأنها تحبس بداخلها حزنًا لا يمكن البوح به. بعد لحظة من الصمت، بدأ صوتها يخرج كهمسة مبحوحة، تحمل في طياتها مزيجًا من الحيرة والضياع.

- لا أعرف من أين أبدأ... كل شيء كان عاديًا... ثم فجأة، بدأت الأمور تتغير. كنت أعيش حياتي بشكل طبيعي. عمل، أصدقاء، عائلة... لم يكن هناك شيء مختلف. لكن منذ حوالي عام، بدأتُ أشعر بشيء غريب... كان كل شيء يسير على ما يرام، ثم فجأة، بدأت أصرخ.

توقفت للحظة، وكأن استرجاع تلك اللحظة يحمل وجعًا كبيرًا. عيناها تبحران في فراغ بعيد.

سأل المعالج النفسي بهدوء:

- تصرخين؟

هزّت رأسها ببطء، متشبثة بمقبض حقيبتها التي كانت قد وضعتها في حجرها:

- نعم، أصرخ... بدون سبب. كنت أجلس مع أمي في إحدى الأمسيات، نتحدث عن أشياء عادية، ثم فجأة، شعرت وكأن شيئًا بداخلي يريد أن يخرج. لم أستطع السيطرة عليه. صوتي خرج مني، صرخة حادة، كأنني أواجه خطرًا رهيبًا. التفتت أمي إليّ برعب، سألتني ما الذي حدث... لكنني لم أعرف ماذا أقول.

صمتت، تراقب ردة فعل المعالج النفسي. لكنّه اكتفى بالابتسام برفق، ناظرًا إلى عينيها مباشرة، وكأنه يريد أن يُشعرها بأنها بأمان.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ هل استمر ذلك الأمر؟"

تنهدت، وأغمضت عينيها للحظة، ثم تابعت بصوت مختنق:

- أجل .. في البداية، كنت أظن أن هذا مجرد توتر، أو ربما ضغوط العمل. لكن الأمر تكرر. كلما شعرت بالقلق، كلما اجتمع الناس حولي، كنت أصرخ. كنت أصرخ بلا توقف، وكأن شيئًا بداخلي يريد أن يخرج. جربت تجاهله، حاولت السيطرة عليه، لكن كلما قاومت،

كانت الصرخات تزداد قوة. لم أعد أحتمل. بدأتُ أشعر وكأنني لست أنا، كأن شيئًا آخر يتحكم بي.

نظر المعالج إلى يديها، التي كانت ترتجفان برفق، ثم سأل:

- وماذا فعلت بعد ذلك؟ هل حاولت طلب المساعدة؟

أومأت "ليلى" برأسها، ونظرة من الندم تخيم على وجهها:

- في البداية، لم أخبر أحدًا. خفتُ أن يظنوا أنني جننت. لكن في النهاية، أخبرتُ صديقتي المقربة، "سارة". كانت أول من أشار إلى أن ما يحدث لي قد يكون بسبب... الجن. قالت إنها تعرف شيخًا يعالج هذه الحالات، يستطيع إخراج الجن من الأشخاص الممسوسين.

ارتفع حاجبا المعالج قليلاً، لكنه ظل صامتًا، مشجعًا إياها على المضي قدمًا في حديثها.

- كنتُ مترددة. لم أؤمن بهذا النوع من الأمور من قبل. لكن... لم يكن لدي خيار آخر. ذهبتُ إلى الشيخ. استقبلني في منزله الصغير. طلب مني الجلوس أمامه، نظر إليّ طويلاً... ثم قال:

- "أنت مسحورة".

توقفت للحظة، وكأنها تتذكر بوضوح تلك النظرة التي ألقتها عينا الشيخ عليها. شعرت حينها بأن كل شيء قد انكشف، وأن كل سر صغير في داخلها قد انفضح أمامه.

- كيف كان شعورك حين قال ذلك؟" سأل المعالج النفسي بصوت حنون.

ارتجفت شفتاها وهي تتذكر:

- شعرت... بالخوف. لكن في الوقت نفسه، شعرت براحة غريبة. أخيرًا، كان هناك تفسير لكل ما كنت أمر به. لم أكن مجنونة. كان هناك شيء حقيقي، شيء لا أستطيع رؤيته، لكنه يتحكم بي. طلب مني الشيخ أن أغمض عينيّ، وبدأ يقرأ القرآن بصوت عميق. كلما تلا آية، شعرت بشيء يتحرك في داخلي، كأن جسدي يقاومه. فجأة، بدأت أشعر بحرارة شديدة في أطرافي، ورأسي بدأ يدور. ثم، كما لو أنني فقدت السيطرة على جسدي، بدأتُ أصرخ مجددًا. كانت صرخات لم أسمعها من قبل. وكأنها لم تكن صرخاتي."

أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت تراقب يديها التي ارتجفتا بوضوح أكبر.

- في تلك اللحظة، قال لي الشيخ:
- " هذا هو السحر الذي بداخلك. يجب أن ابطاله. بدأت أصرخ أكثر، ثم شعرت وكأن شيئًا يُسحب من داخلي. كان شعورًا غريبًا... كأن شيئًا غير مرئي يمزقني من الداخل. شعرت بوجهي يحترق، بجسدي يرتعش، ثم فجأة... توقف كل شيء."
- وهل شعرتِ بالتحسن بعد ذلك؟"

سأل المعالج النفسي، محاولاً استيعاب التجربة التي مرت بها.

- نعم... شعرت بالراحة. لم أعد أصرخ، لم أعد أشعر بتلك الرغبة في الصراخ. لمدة أسبوعين، كنتُ على ما يرام، كأن كل شيء قد عاد لطبيعته.

ثم خفضت عينيها، وكأنها لا تريد اكمال القصة:

- لكن بعد أسبوعين، عادت الأمور... كنت أستيقظ ليلاً، أصرخ, أحيانًا، كنت أسمع صوتًا في رأسي، لم أعد

أستطيع التحمل. عدتُ إلى الشيخ مجددًا، طلبتُ منه أن يعالجني مرة أخرى.

- وماذا فعل هذه المرة؟"

سأل المعالج، محدقًا في عينيها، وكأنه يحاول قراءة ما لم يُقال بعد.

- قال لي إن السحر أقوى مما توقع، وإنني بحاجة إلى طقوس أكثر تعقيدًا. فقال المعالج النفسي بلطف:

- "ليلى"، ما مررتِ به ليس سهلاً، وأنا أصدق أن ما شعرتِ به كان حقيقيًا. لكن، دعيني أسألك، بعد تلك الجلسة الثانية، هل شعرتِ بتحسن؟

رفعت نظرها إليه، ودموعها تتلألأ في عينيها:

- لم أعد أصرخ، لكن شيئًا بداخلي... لم يكن على ما يرام. كلما حاولت النوم، كنتُ أشعر بأنفاس باردة على رقبتي، كأن هناك أحدًا يقف بجانبي. لم أعد أنام، لم أعد أستطيع أن أكون وحدي. بدأت أشعر بالذعر كلما حلّ الليل. هل تظن أنني مسحورة؟

نظر إليها المعالج بعينيه العميقتين، ثم قال برفق:

- "ليلى"، أحيانًا عندما نشعر بالخوف الشديد، وعندما لا نجد تفسيرًا منطقيًا لما نمر به، تبدأ عقولنا في صنع تجارب حسية تبدو حقيقية جدًا. الشيخ لم يكن بالضرورة مخادعًا، لكن ما حدث معك كان نتيجة الخوف والإيحاء. عقلك بدأ يصدق أن هناك شيئًا داخلك، وبدأ يصنع تلك التجارب لتأكيد هذا الإيمان. أود أن أساعدك على التخلص من هذا الخوف، وعلى استعادة قوتك.

ظلت "ليلى" تنظر إليه بصمت، وكأنها لا تزال تبحث عن إجابة في وجهه، فيما جلست مشاعرها في منتصف الطريق بين الشك واليقين، تنتظر اللحظة التي تبدأ فيها برؤية الضوء في نهاية النفق.

[6]

...كانت غرفة العلاج تغرق في صمت ثقيل، ثقيل لدرجة أنهما كانا يكادان يسمعان نبضات قلبيهما. جلست "سميرة" تحدق في الأرض، عيناها تلمعان بشيء يشبه الإدراك المباغت، وكأنها كانت على حافة كشف سر دفين، سر لم تشأ مواجهته من قبل. تنفست بعمق، شعرت بشيء يرتعش في صدرها. لوهلة، التقى المعالج النفسي بنظرتها، ورأى في عينيها شرارة من الخوف، الخوف الذي يمهد الطريق لحقيقة بدأت تطفو على السطح.

- "دكتور..."

قالت، صوتها بالكاد مسموع، وكأنها تخشى من كلماتها نفسها.

- "هناك شيء... شيء لم أتذكره من قبل. حدث معي خلال الجلسة الثانية مع الشيخ. لا أدري... لم أفكر فيه من قبل، وكأن عقلي كان يرفض تذكره."

مال المعالج بجسده قليلاً نحوها، وكأنما يحاول الإمساك بكل كلمة تخرج من شفتيها. رفع يديه، مشيرًا لها بأن تأخذ وقتها، وأن تعطي نفسها المساحة الكاملة للحديث.

- خذي وقتك، "ليلى". لا داعي للتسرع. أخبريني ما الذي تذكرته."

لم ترفع "ليلى" عينيها، بقيت مركزة على النقطة نفسها على الأرض، وكأنها تخشى أن تنظر إليه. ارتجفت شفتيها، وتسللت أناملها إلى ياقة قميصها، تتحسس رقبتها برفق، وكأنها تشعر بشيء ما هناك.

- أثناء الجلسة الثانية، عندما كنتُ أجلس أمامه... قال لي إنه يجب أن يستخدم 'أسلوبًا مختلفًا' لأن الجني الذي يسكنني 'مخادع وقوي'. لم أفهم ما الذي يعنيه بذلك، لكنه طلب مني أن أغلق عينيّ، وأن أركز فقط على صوته.

رفعت نظرها إلى المعالج للحظة، ثم أغمضت عينيها مجددًا، محاولة استرجاع المشهد كأنه يعيد نفسه أمامها بكل وضوح.

- "كانت الغرفة مظلمة، بدأ الشيخ يقرأ القرآن بصوت أعلى، وكأن كل كلمة كان يلفظها تتحول إلى شيء ثقيل داخلي. كنت أشعر بشيء يتحرك في جسدي، كأن هناك من يحاول الفرار. فجأة، توقف عن القراءة. سمعت خطواته تتقدم نحوي، شعرت بيديه تلمسان كتفيّ بلطف، ثم..."

توقفت، وأخذت نفسًا مضطربًا، عيناها تفتحتا فجأة، وكأنها ترى طيف تلك اللحظة.

- بدأ يضغط على رقبتي برفق. لم يكن ضغطًا مؤلمًا، لكنه كان مريبًا. ثم قال بصوت مهيب: 'إذا لم تخرج الآن، سأضطر إلى إخراجك بالقوة.' كنت أرتجف، لا أعرف ما الذي يحدث، ثم... فجأة، بدأ يضغط بقوة أكبر."

ارتجفت يداها وهي تتذكر، وكأن جسدها يعيد تمثيل تلك اللحظة المرعبة، بينما صوتها أصبح أكثر حدة، وكأن الكلمات تقاتل للخروج.

- كنت أشعر بأنفاسي تضيق، ورأسي يدور. بدأتُ أسمع صوتًا... صوتًا ليس صوته، كان أشبه بالهمسات...

همسات غاضبة، تهمس بكلمات لا أفهمها. شعرت بأن كل شيء حولي يدور. ثم قال لي الشيخ: "هذا هو الجني. إنه يرفض الخروج، يجب أن تكوني قوية. سأجعله يخرج مهما كلف الأمر"".

كان المعالج يتابع كل حركة، كل ارتعاشة، كل رعشة في صوتها.

- ثم حدث شيء غريب، دكتور..." همست "ليلى"، وعيناها متسعتان كأنهما غارقتان في ظلام.
- شعرت بيديه تنتقلان من رقبتي إلى أعلى صدري. كانت أنفاسه ثقيلة، متقطعة. شعرت بضغطه يزداد، ثم سمعت نفسي أصرخ، لكن صرختي كانت مكتومة. كنت أرتعش، وجسدي كله كان يرتجف بلا توقف. قال لي: "إنه يحاول إخافتك. لا تستسلمي". لكنني شعرت بأنني أفقد وعيي. كلما حاولت التحدث، شعرت وكأن صوتي مختنق. ظل يضغط على صدري، وكأنني قطعة قماش يحاول عصرها."

شحب وجه المعالج، لكن تعبيراته ظلت ثابتة، محاولاً أن يحافظ على هدوئه.

- "ليلى"..." قال بهدوء، صوته يشع بالحذر والحنان في آن واحد، "أنت الآن بأمان. ما حدث هناك... هل شعرتِ في تلك اللحظة بأن هناك شيئًا غير طبيعي؟ شيء يجعلكِ غير مرتاحة؟"

رفعت "ليلى" يديها إلى عنقها، وضغطت عليهما بخفة، وكأنها تحاول إعادة تمثيل تلك اللحظة بيديها المرتجفتين.

- لم أكن أفهم، لم أستطع التفكير بوضوح. كنت أصرخ من الداخل، لكن صوتي لم يخرج. شعرت وكأنني أختنق بيدين غير مرئيتين، يدي شخص غريب، ليس بشريًا.
- كنت أشعر وكأنني محبوسة، وكأنني... لم أعد أتحكم في جسدي. بدأت أبكي، بكاءً مريرًا، لكنه لم يتوقف. ظل يقول لي إن الجني هو من يبكيني، وليس أنا. لكنني كنت أشعر أن شيئًا آخر يحدث... شيء لم أستطع مقاومته.

حاول المعالج أن يحافظ على هدوئه. أمال جسده نحوها أكثر، وكأنه يريد أن يحيطها بأمانه:

- هل انتهى الأمر بعد ذلك؟ كيف خرجتِ من هناك؟

تصلبت "ليلى" للحظة، ثم ابتسمت ابتسامة مشوشة.

- بعد فترة، لا أعرف كم مرّ من الوقت، رفع يديه عني فجأة، وكأنه أُنهك. قال لي بصوت غاضب: "هذا الجني أقوى مما توقعت. سنحتاج إلى جلسة أخرى. لكنك أقوى مما ظننت، يا "ليلى"'.

أخذ المعالج النفسي لحظة للتفكير، ثم قال برفق:

- "ليلى"، ما مررتِ به كان تجربة صعبة جدًا، ومليئة بالخوف. أحيانًا، عندما نشعر بالخوف الشديد، يمكن أن نسيء فهم ما نمر به. لا أريد أن أقول إن مشاعرك لم تكن حقيقية، بل هي حقيقية جدًا. لكنني أظن أن الشيخ قد استغل حالتك العاطفية، جعلك تصدقين أن هناك شيئًا داخلك، بينما الحقيقة قد تكون مختلفة.

ظللت "ليلى" تحدق فيه، وعيناها تحملان مزيجًا من الألم والأمل...

[٦]

.... جلس محمود في المقعد المقابل للمعالج النفسي، عيونه تائهة في تفاصيل الغرفة الصغيرة، وكأنها تبحث عن نقطة تتشبث بها في دوامة أفكاره المتشابكة. كان وجهه شاحب، وشعره مبعثر، وكأنما لم يذق طعم الراحة منذ زمن بعيد. عينيه، على اتساعهما، تحملان ظلًا من خوف قديم، خوف يأبى أن يبارح ملامحه، وكأنما هو جزء لا يتجزأ من شخصيته الآن.

كان محمود يرتدي قميصًا داكنًا، يجلس منكمشًا على نفسه، يده اليمنى متشبثة بحافة المقعد وكأنها تخشى السقوط. أخذ لحظة ليجمع أفكاره، ثم زفر ببطء، ناظرًا إلى المعالج النفسي بملامح متجهمة، وكأن كل ما بداخله من قلق وتوتر تجمّع في تلك النظرة.

- "دكتور... لا أعرف من أين أبدأ. مررت بتجارب غريبة، أشياء لا يمكن تفسيرها. أشعر أنني لم أعد أتحكم بحياتي، وكأنني مسلوب الإرادة، وكأن هناك قوة خفية تعبث بي. كلما حاولت أن أقاوم، شعرتُ أن الأمور تزداد سوءًا."

أومأ المعالج النفسي برأسه بتفهم، مائلًا جسده قليلاً نحو محمود، مشجعًا إياه على الاسترسال.

- "خذ وقتك يا محمود. تحدث كما تشاء، أنا هنا للاستماع. دعني أفهم ما حدث معك."

ابتلع محمود ريقه، وكأن الكلمات عالقة في حلقه، ثم تابع بصوت متقطع:

- "بدأ الأمر منذ أكثر سنة. كنت أعاني من أمور صغيرة في البداية... أشياء قد تبدو عادية مثل الأرق، الكوابيس، مشاعر خوف غير مبررة. كنت أتجاهلها، ظننت أنها مجرد ضغوط العمل، أو ربما بسبب وفاة والدي رحمه الله... ثم بدأت الأمور تزداد سوءًا. بدأتُ أشعر بأمور غريبة نحدث معي."

صمت للحظة، وعيناه تحدقان في الأرض، ثم رفعهما ببطء إلى المعالج النفسي، وكأنه يبحث عن شيء ما في ملامحه.

- "في البداية، لم أخبر أحدًا. لم أرد أن أبدو مجنونًا. لكنني كنت أزداد يأساً مع مرور الأيام. في النهاية، لجأتُ إلى عمي، هو من أشار عليّ بزيارة الشيخ... الشيخ الذي يقولون عنه إنه قادر على إبطال السحر او العمل."

ارتفع حاجبا المعالج النفسي قليلاً، لكنه ظل صامتًا، منتظرًا منه أن يُكمل.

- "ذهبت إليه، يا دكتور. في إحدى الليالي، عندما لم أعد أحتمل ما يحدث لي. عندما دخلت عيادته، كان المكان تفوح منه رائحة البخور. استقبلني رجل مسن، لم يكن طويلًا ولا قصيرًا، كان له جسد نحيل ولحية بيضاء، وعينان تلمعان بشكل غريب في الظلام. نظر إليّ للحظة طويلة، ثم قال: "أنت مسحور. هناك من يريد لك الأذى"".

تصلبت ملامح محمود، وانقبضت يده على حافة المقعد، وكأن ذكرى تلك الكلمات لا تزال صعبه عليه.

- "شعرتُ بقلق شديد. نظراته كانت ثاقبة، وكأنها تخترقني. طلب مني أن أجلس أمامه، وألا أنطق بكلمة. ثم بدأ يتلو آيات من القرآن بصوت عميق، صوته كان كالصدى في الغرفة، كلما قرأ آية، شعرتُ بشيء يضغط على صدري، كأنها ليست كلمات، بل قيود خفية تشدني إلى الأرض."

توقف لبرهة، وكأنه يحاول تهدئة تسارع أنفاسه، ثم قال بصوت متوتر:

"بعدها، طلب مني أن أمدّ يدي، ثم أخرج من جيبه ورقة صغيرة مطوية، ربطها بحبل رقيق، وأعطاني إياها. قال لي إنها 'حجاب'، مكتوب عليه 'سر' خاص بي، سيساعد في إبطال السحر الذي يؤذيني. طلب مني أن أدفنه تحت شجرة في منتصف الليل، وألا أخبر أحدًا بمكانه. قال إن دفن الحجاب في مكان لا تطاله الأقدام هو الحل الوحيد ل لإبطال السحر."

رفع المعالج النفسي حاجبيه قليلاً، ثم سأل بصوت هادئ:

- "وماذا فعلت بعد ذلك؟ هل اتبعت تعليماته؟"

هزّ محمود رأسه سريعًا، عيناه تحملان مزيجًا من الذهول والحيرة:

- "بالطبع، فعلت كل ما قاله لي. في تلك الليلة، انتظرت حتى منتصف الليل، حملت الحجاب وذهبت إلى حديقة قريبة، حفرت حفرة صغيرة بجانب شجرة قديمة، ودفنته. كنت أشعر وكأن كل نظرة، كل حركة، مراقبة. كأن عيونًا خفية تتابعني من بين الأشجار."

- "هل شعرت بتحسن بعد ذلك؟"

سأل المعالج النفسي، وعيناه تبحثان عن تفاصيل دقيقة في وجه محمود.

- "نعم"

أجاب محمود بحماسة مفاجئة، وكأنما تلك الذكرى تحمل في طياتها بصيص أمل.

- "في الأيام التالية، بدأت أشعر بالراحة. كل شيء بدا طبيعيًا مجددًا. لكن... بعد بضعة أسابيع، بدأت الأمور تعود. ببط."

أغمض عينيه، وكأنما يحاول طرد الذكريات من رأسه، ثم تابع:

- "عندما أخبرت الشيخ، قال إن السحر قد تجدد. وإن الحجاب القديم لم يعد كافيًا. طلب مني أن أعود إليه، وكتب لي حجابًا آخر. هذه المرة، قال إن عليّ أن أدفنه في مكان بعيد، في أرض لا يسير عليها أحد وبعد غروب الشمس، كي ينفك العمل."

صمت محمود، وكأن الكلمات تخنقه. رفع نظره ببطء إلى المعالج النفسي، عيناه تحملان نظرة متسائلة، يائسة:

- "دكتور، لماذا شعرت بالراحة في البداية؟ لماذا كنت أشعر أن الأمور تتحسن، ثم فجأة، تنهار؟ هل كان الشيخ مخطئًا؟ أم أن هناك شيئًا حقيقيًا يحدث معي؟"

أخذ المعالج النفسي نفسًا عميقًا، ثم قال بهدوء:

- " ما مررت به ليس تجربة سهلة، وأنا أفهم شعورك بالارتباك. ما حدث معك هو ما يُعرف في علم النفس بـ (تأثير الإيحاء) و(التأثير الوهمي). عندما نؤمن بشدة أن شيئًا ما سيحدث أو سيتغير بسبب طقس معين أو (حجاب) معين، يبدأ عقلنا بتشكيل تجربة حقيقية،

تشعر وكأنها تحسن فعلي. لكن هذا الشعور، للأسف، لا يدوم طويلًا، لأن الجذر الحقيقي للمشكلة لم يُعالج. عندما كنتَ تشعر بالتحسن بعد دفن الحجاب، كان ذلك نتيجة لتوقعك بأن الأمور ستتحسن، وليس لأن هناك قوة خارجية تتحكم بك."

بدت على ملامح محمود الحيرة والشك، وكأنه يحاول أن يفهم ما يسمعه.

- "لكن... كيف لي أن أصدق أن كل هذا مجرد وهم؟ كيف يمكن أن يكون الألم الذي شعرت به، والخوف، كله مجرد لعبة من عقلي؟"

ابتسم المعالج النفسي برفق، ثم قال بصوت عميق:

- "عقلنا، هو أقوى مما نتخيل. أحيانًا، يمكنه أن يصنع لنا عوالم كاملة، مليئة بالوحوش والمخلوقات، لمجرد أننا نخاف منها. قد تكون شخص مرهق، مشوش، ومجروح. دعني أساعدك على فهم ما يجري في داخلك، حتى تجد السلام الحقيقي، سلام لا يتطلب دفن تمائم في الأرض أو اتباع طقوس غريبة."

ظل محمود ينظر إليه بصمت، وكأن شيئًا ما في داخله قد بدأ يتحرك، يتغير. ربما كانت هذه بداية رحلة جديدة، رحلة نحو التحرر من الخوف، نحو مواجهة أعمق مع ذاته، تلك الذات التي ضاعت في متاهات السحر والجن والأوهام.

[8]

...كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصراً عندما دخلت الأم غرفة المعالج النفسي، تحمل بين ذراعيها طفلة صغيرة، بدت وكأنها طيف من الماضي. كانت الطفلة، ريم، فتاة لم تتجاوز الثامنة من عمرها، شاحبة الوجه، هزيلة الجسد، ترتدي فستانًا زهريًا بسيطًا، عينان صغيرتان، تطلان من خلف شيء من الخوف الذي يتجاوز عمرها البريء.

أما الأم، فقد بدا على وجهها تعبير من القلق العميق، وملامحها مشدودة كوتر مشدود لحد الانكسار. كانت تحمل طفلتها وكأنها تحمل أثقال العالم على كتفيها. جلست على الكرسي المقابل للمعالج النفسي، وضمت الصغيرة إلى صدرها بلهفة، وكأنها تخشى أن تفلت من بين يديها إن أرختهما للحظة.

نظر المعالج النفسي إلى الطفلة للحظات، ثم رفع عينيه إلى الأم، بابتسامة دافئة تشع تعاطفًا. كان يعلم أن خلف هذه

الزيارة قصة، حكاية يغلفها الألم والصمت والخوف. أشار إليها بهدوء لتبدأ بالكلام حين تشعر أنها مستعدة.

- "أهلاً بكما... تفضلي، كيف أستطيع مساعدتكما اليوم؟"

تنفست الأم بعمق، وكأنها تحاول أن تستجمع قوتها لتواجه كابوس عاشته مرارًا في أحلامها. مدت يدها برفق، أمسكت بيد ابنتها الصغيرة، ثم قالت بصوت مختنق:

- "هذه... هذه ابنتي، ريم. كانت طفلة مرحة، مليئة بالحياة. كانت تجري وتلعب وتضحك طوال اليوم.

لكن الآن... انظر إليها. أصبحت منطوية وساكته".

ظل المعالج النفسي ينظر إليها، مراقبًا كل حركة صغيرة، منتظرًا أن تفرغ ما في جعبتها من الألم. لم يرد أن يضغط عليها بالكلمات، كان يعلم أن الكلمات هنا لا تُقال بسهولة.

- "متى بدأت هذه التغيرات؟" سأل برفق.

ارتجفت شفتا الأم، وكأنها تحاول ابتلاع الدموع التي تجمعت في حنجرتها.

- "بدأ كل شيء منذ أربعة أشهر. كنا نعيش حياة طبيعية. ريم كانت طفلة كأي طفلة أخرى. لكن، فجأة، بدأت تتصرف بغرابة. أصبحت تصرخ في الليل، وتخاف.. كنت أدخل إلى غرفتها، أجدها جالسة تبكي وخائفة".

أغمضت الأم عينيها للحظة، محاولة كبح دموعها، ثم تابعت بصوت مختنق:

- "حاولت أن أتجاهل الأمر في البداية. ظننت أنها مجرد كوابيس، أو أنها تخاف من الظلام. لكن الأمور ازدادت سوءًا. أصبحت تصرخ بلا سبب، تتشنج. كنت أراها تتألم، لكن لم أستطع فعل شيء."

أخذت نفسًا مرتعشًا، ثم تابعت بوجهٍ ممتلئ بالأسى:

- "في يوم من الأيام، نصحتني جارة لي بزيارة شيخ معالج. قالت لي إنه يساعد. لم أكن أؤمن بهذه الأمور من قبل، لكنني كنت يائسة، يا دكتور. كان يجب أن أفعل شيئًا، أي شيء، لإنقاذ ابنتي."

رفع المعالج النفسي حاجبيه، لكنّه ظل صامتًا، مكتفيًا بالاستماع، وعيناه تتحركان بين الطفلة والأم.

- "ذهبت إليه في صباحٍ باكر، أخذت ريم معي، كانت تبكي وتتمسك بي. عندما وصلنا، كان الشيخ جالسًا في غرفته".

توقفت للحظة، ثم أكملت، عيناها تحملان نظرة رعب لم تفارق وجهها منذ ذلك اليوم:

- "جلس الشيخ، نظر إلى ريم، ولمس جبهتها برفق. ثم قال: (هذه الطفلة ممسوسة). شعرت بخوف شديد من ذلك.
- "وماذا فعل بعد ذلك؟"

سأل المعالج النفسي بلطف.

- "قال لي انه سيعالجها ويقرأ عليها قرآن لكي يبطل المس."

سكتت للحظة، ويدها ترتجف، وضمت الطفلة الصغيرة إلى صدرها وكأنها تريد أن تحميها من ذكرى تلك اللحظة الرهيبة.

- "بدا يقرأ عليها قرآن ثم بعد ذلك بدأ يضغط على عنقها، كأنما يريد أن يخنقها. خفت كثيراً.. لكنه قال لي: (لا تخافي لن اسبب لها أب أذى) وكانت ابنتي

خائفة لكنه فعل ذلك رغم انها كانت تصرخ وخائفة.. ولا أدرى كيف تحملت ذلك".

ارتعشت يداها وهي تحتضن الطفلة بقوة، وكأنها تخشى أن تُسلب منها مجددًا.

- "أخذت ريم، وغادرت. لكن منذ ذلك اليوم، لم تعد كما كانت. لم تعد تتحدث. لم تعد تبتسم. أصبحت تائهة. كلما حاولتُ أن أتكلم معها، كلما نظرت إليّ بتلك النظرة... النظرة الفارغة."
- "وأين ذهبتم بعدها؟"

سأل المعالج النفسي، محاولًا الحفاظ على هدوء صوته رغم شعوره بالقلق.

- "ذهبت إلى أطباء، إلى شيوخ آخرين... كلهم قالوا إنها سليمة جسديًا. لكنني أعرف أن هناك شيئًا قد كُسر في داخلها. كأنما تلك اللحظة قد سلبت منها جزءًا من روحها."

أخذ المعالج النفسي نفسًا عميقًا، ناظرًا إلى الطفلة الصغيرة التي لم تحرك ساكنًا طوال الجلسة. ثم قال بهدوء:

- "ان الطفلة خائفة، وتعرضت لصدمة.

أخذت الأم نفسًا مضطربًا، وكأنها تحاول استيعاب كلمات المعالج. رفعت عينيها إليه، نظرة تحمل مزيجًا من الأمل واليأس. لم تكن متأكدة إن كان هناك سبيل حقًا لاستعادة طفلتها، لاستعادة ضحكاتها التي كانت تملأ أرجاء البيت ذات يوم. لكنها كانت على استعداد للقيام بأي شيء، حتى لو كان هذا الشيء مجرد وهم، أو خيط رفيع تتشبث به لتتجنب الغرق في بحر الهزيمة.

أومأت برأسها ببطء، عيناها تحترقان بالدموع المكبوتة، ثم قالت بصوت منخفض:

- "دكتور... سأفعل كل ما تطلبه. لكن أرجوك... ساعدني. أنا أشعر أنني أفقدها. أشعر وكأن روحي تختنق كلما نظرت في عينيها ورأيت هذا الفراغ. ريم كانت طفلتي المرحة، التي لم تتركني دقيقة دون أن تسأل، دون أن تتحدث. الآن... انظر إليها."

انحنى المعالج النفسي ببطء إلى مستوى الطفلة، ناظرًا إلى وجهها البريء، وصوته ينساب بهدوء:

- "ريم، أنا هنا لأساعدك، لأسمعك. كل شيء سيكون على ما يرام. هل ترغبين في اللعب أو التحدث معي؟"

لم تتحرك ريم، لم ترفّ حتى عيناها.

أخذ المعالج النفسي لحظة، ثم ابتعد قليلاً، موجهًا حديثه إلى الأم:

- "سعاد، ريم تمر بصدمة شديدة. ما حدث لها ليس بالأمر البسيط. الضغط الذي تعرّضت له، سواء كان جسديًا أو نفسيًا، أثّر بشكل عميق على حالتها. في بعض الأحيان، يتفاعل الأطفال مع الصدمات بطريقة تجعلهم ينعزلون عن الواقع، كأنهم ينسحبون إلى عالم آمن داخل عقولهم، هروبًا من الألم الذي لا يستطيعون التعامل معه."

بدأت الأم تهز رأسها برفق، عيناها تحملان نظرة من الذهول، وكأنها تحاول أن تستوعب ما يُقال لها.

- "هل تعني... أن هذا كله بسبب ذلك الشيخ؟ كنت أعتقد أنه كان يحاول مساعدتها. لكنني رأيت... رأيت الألم على وجهها، رأيت كيف كانت تختنق، كيف

كانت تصرخ وتتوسل إليه أن يتوقف. لم أكن أستطيع حمايتها... يا الله، ماذا فعلت؟!"

انفجرت الأم بالبكاء، دموعها تنهمر كالشلال، وبدأت ترتجف وكأن جسدها بأكمله يتداعى تحت ثقل الشعور بالذنب. ظلّت تضم ابنتها بشدة، وكأنها تحاول تعويض كل لحظة من الألم مرت بها الصغيرة، كل صرخة لم تستطع حمايتها منها.

جلس المعالج النفسي بهدوء، انتظر حتى هدأت قليلاً، ثم قال بصوت هادئ:

- " ما حدث لريم كان نتيجة لما تعرضت له. لكن لا تلومي نفسكِ. في لحظات اليأس، نلجأ إلى أي شيء قد يبدو لنا كطوق نجاة. لقد حاولتِ حمايتها بأفضل طريقة كنتِ تعرفينها. الآن، نحن بحاجة إلى أن نبدأ من جديد، بخطوات صغيرة، لنساعدها على الشعور بالأمان مجددًا."

رفعت الأم رأسها ببطء، مسحت دموعها بيد مرتجفة، ثم قالت:

- "كيف؟ كيف سنفعل ذلك؟ إنها لا تتحدث، لا تلعب، بالكاد تأكل. أنا أخشى أن أكون قد فقدتها إلى الأبد."

فرد المعالج النفسي وقال:

- "لا تقلقي سيكون كل شيء بخسر".

[9]

...جلس غالب أمام المعالج النفسي، تتدافع الكلمات من فمه ببطء كأنه يخشى أن تخرج للعلن ما ظل حبيسًا في صدره لسنوات. عيناه شاردتان، تتأملان نقطة ما على الجدار، وكأنهما تحاولان الهروب من ذكريات مؤلمة. تنهد بعمق، ثم بدأ يروي قصته بصوت متهدج، تختلط فيه نبرة الحزن بالأسى:

- "في بداية زواجي، كانت كل الأمور تبدو طبيعية. كنت أتطلع لحياة زوجية سعيدة، مليئة بالحب والمودة. لكن لم تمض سوى بضعة أسابيع حتى بدأت ألاحظ شيئًا غريبًا، شيئًا لم أستطع تفسيره. كلما اقتربت من زوجتي، شعرت بانقباض داخلي، كأن جسدي نفسه يرفض فكرة الاقتراب منها. كأن هناك حواجز خفية ترتفع بيني وبينها كلما أردت أن أمد يدي لألمسها أو أعبّر لها عن مشاعري. كان الأمر يتعدى مجرد شعور

نفسي. كنت أختنق... تختنق روحي من الداخل، وأشعر بأنني أبتعد عنها أكثر وأكثر رغم رغبتي الشديدة في التقرب منها."

صمت برهة، وكأن الذكريات تسحق صدره، ثم تابع بصوت مثقل بالحزن:

- "بمرور الأيام، ازداد الأمر سوءًا. لم أعد أستطيع حتى النظر في عينيها. كنت أشعر بالخجل والعار. كانت تسألني دائما إن كنت قد توقفت عن حبها. بدأت تنظر إليّ بنظرات مليئة بالتساؤل والقلق. حاولتُ طمأنتها، حاولت شرح ما يحدث، لكن كيف أشرح لها ما لا أستطيع فهمه؟! كانت كلماتي تخونني، وجملي تتعثر، وكأنني في دوامة مظلمة لا أرى فيها نهاية."

بدأ المعالج يميل بجسده نحو غالب، متابعا حديثه باهتمام بالغ.

- "وماذا حدث بعد ذلك؟"

تنهد غالب مجددًا، وكأن حملًا ثقيلًا يثقل صدره، ثم قال:

- "مرت أشهر طويلة على هذا الحال. بدأت أبتعد عن المنزل متعمدًا. أقضي ساعات في العمل، وفي المقاهي، وأحيانًا أتجول بلا هدف في الشوارع حتى منتصف الليل. كنت أخشى العودة إلى المنزل، إلى زوجتي، إلى تلك اللحظات التي ينفجر فيها الصمت بيننا كأنه بركان. كنا نعيش تحت سقف واحد، لكننا أصبحنا غريبين. لا كلمات تجمعنا، لا مشاعر تضيء عتمة علاقتنا. كنت أشعر أنني أختنق، وأن حياتي تنهار قطعةً قطعةً."

توقف قليلاً، ثم أكمل بصوت خافت:

- "في أحد الأيام، كنت أزور صديقًا قديمًا لم أره منذ زمن. لاحظ عليّ الحزن والاكتئاب، فأصرّ أن يعرف ما بي. حاولت التهرب، لكن في النهاية، انفتحت أمامه كأنني كنت بحاجة إلى أن يسمعني أحد. حَكيت له كل شيء، وما أن انتهيت، حتى نظر إليّ بوجهٍ جادٍ وقال: (أنت مسحور)."

رفع غالب بصره إلى المعالج النفسي، وكأن نظرة الاستغراب والدهشة ما زالت تسيطر عليه رغم مرور الوقت.

- "في البداية، ضحكت. لم أكن أؤمن بهذه الأمور. أنا رجلٌ عقلاني، لم أؤمن يومًا بالسحر أو الشعوذة. لكن صديقي ظل مصرًا. قال إن ما أعيشه ليس أمرا طبيعيا، وإنه من الأفضل أن أذهب إلى رجل معروف في منطقته يستطيع كشف هذه الأمور وحل العمل والسحر".
- "وماذا فعلت؟"

سأل المعالج بفضول.

ابتسم غالب ابتسامة مريرة، وقال:

- "كانت فكرة مجنونة، لكنني كنت غارقًا في اليأس. فكرت: ماذا يمكن أن أخسر؟ سافرت إلى ذلك الرجل، كان يعيش في منطقة نائية، بعيدًا عن أعين الناس. عندما وصلت إلى بيته، شعرت كأنني دخلت إلى عالم آخر. كان البيت قديمًا، تفوح منه رائحة البخور، وجدرانه مغطاة بأقمشة ملونة. جلست أمامه، وكان

يجلس في منتصف الغرفة على حصير قديم، محاطًا برموز غريبة لم أفهم معناها."

تابع حديثه، بينما تلوّن صوته بظل من الخوف الذي شعر به في تلك اللحظة:

- "نظر إليّ بعينين حادتين كأنهما تخترقان روحي. قبل أن أنطق بكلمة، سألني: (ما اسمك؟ وما اسم والدتك؟) أجبت بتردد. ثم سكت قليلاً قبل أن يقول: (أشعر بوجود طاقة غريبة تحيط بك). شعرت بقشعريرة تسري في جسدي. بدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم نظر إليّ مجددًا وقال: (هناك سحرٌ قديم قد عُمل لك. شخصٌ ما أراد تدمير علاقتك بزوجتك، وقد سخر الجن ليبعدك عنها)."

تسارع تنفس غالب وهو يتذكر تلك اللحظة:

- "قلت له بدهشة: "ماذا تعني؟!" فأجابني: "السحر مدفون تحت أحد القبور في المقبرة البعيدة عن مدينتك. إذا أردت التخلص منه، عليك أن تستخرجه بنفسك وتكسره"."

سأل المعالج بنبرة لطيفة.

- "وكيف كانت مشاعرك حينها؟"
- "كنت مرعوبًا! ولكني صدقته وقررت الذهاب للمقبرة. في تلك الليلة، توجهت إلى المقبرة وحدي. كان الليل حالك السواد، والرياح تعصف حولي كأنها أرواح غاضبة. عندما وصلت إلى القبر الذي وصفه لي، بدأت أحفر بفأس صغيرة، الأرض كانت قاسية، والظلام حالك. من الخوف شعرت كأن الأشجار تهمس، أو كأن شيئًا ما كان يراقبني. حفرت لأكثر من ساعة حتى تعثرت يدي بشيء صلب."

التفت نحو المعالج بعينين واسعتين:

- "وجدت صندوقًا صغيرًا، ملفوفًا بأقمشة متسخة. فتحته، ووجدت بداخله خيوطًا معقودة، أوراقًا مكتوبة بلغة لا أفهمها، وقطعة قماش تحتوي على شعر وكانت صورتي فيه. قلبي كاد يتوقف. تذكرت ما قاله الرجل: "اكسره، حطمه، ولا تترك منه أثرًا." بدأت أفك العقدة، وكلما فككت عقدة، شعرت بثقل ينزاح

عن صدري. مزقت الأوراق والصورة وأحرقتها، ودفنت كل شيء في الأرض بعيدًا."

سكت، ثم أضاف بصوت مبحوح:

- "في تلك الليلة، عندما عدت إلى المنزل، شعرت لأول مرة منذ شهور بشيء من السلام. نمت دون كوابيس، دون ضيق. وفي اليوم التالي، عندما اقتربت من زوجتي، شعرت بأنني أستطيع أن ألمسها دون خوف. كأن حاجزًا خفيًا قد تحطم."

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أكمل بصوت هادئ:

- "تحسنت حياتي بعدها. استعدت علاقتي مع زوجتي، وعاد الحب بيننا من جديد. لكنني لا أستطيع أن أنسى تلك الليلة. ستبقى محفورة في ذاكرتي، كأنها تحذير من عالمٍ لا أستطيع فهمه أو التحكم فيه."

نظر إليه المعالج بتعاطف:

- "ما مررت به تجربة صعبة ومخيفة، لكنها انتهت الآن. ما يهم هو أن تستمر في بناء حياتك بعيدًا عن هذه الذكريات."

أومأ غالب برأسه، وعيناه لا تزالان غارقتين في ذكرى ذلك الليل الطويل.

- "أعلم... لكن هذه التجربة غيرتني. جعلتني أدرك كم نحن ضعفاء أمام قوى لا نراها. لن أسمح لنفسي أن أكون ضحية مرة أخرى."

ظل المعالج صامتًا، يراقب الرجل الذي جلس أمامه، يحاول لملمة شتات روحه التي عذّبتها أسرار الليل وأسرار القبور، قبل أن يبتسم له ابتسامة صغيرة...

[10]

...مرعي جلس في الجلسة العلاجية، عيونه مليئة بالإرهاق، وصوته خافت، لكنه يحمل في طياته غضبًا مكتومًا. بدأ يتحدث وكأنه يكشف سرًا دفينًا، قال:

- "أنا متأكد تمامًا أن ما يحدث معي ليس طبيعيًا. لا، ليس شيئًا يمكنني التغاضي عنه. أحدٌ ما تعمّد إيذائي، وأعتقد أن هناك سحرًا رُشَّ على باب بيتي. نعم، إحداهن – إحدى النساء من حارتنا، تلك المرأة التي طالما كانت تنظر نحوي بنظراتٍ غريبة، كأنها تتمنى لي الشر. كنت أظن أنها مجرد تخيلات، لكنني الآن واثق مما أشعر. يومًا ما استيقظت صباحًا ووجدت على عتبة بيتي بقعة سوداء غريبة، رائحة نفاذة تنبعث منها، وأثار مسحوق مبعثر بشكل متعمد. منذ ذلك اليوم، كل شيء تغير."

المعالج النفسي نظر إليه بعينين متسائلتين، محاولاً أن يستشف المزيد من التفاصيل، فسأله بصوت هادئ:

- "ماذا حدث بعد ذلك؟ كيف تغيرت حياتك؟"

أخذ مرعي نفسًا عميقًا، وكأن الكلمات تجثم على صدره. ثم قال:

- "منذ أن تخطيت ذلك الباب في ذلك الصباح، بدأت أعاني من تعبٍ لا ينتهي، وكأن جسدي لا يتعرف على النوم أو الراحة. كنت أستيقظ كل صباح وأنا أشعر بالإرهاق وكأنني كنت أحمل الصخور طوال الليل."

توقف، عيناه تغشاهما نظرة توتر وهو يسترجع التفاصيل المؤلمة:

- "لم يتوقف الأمر عند هذا الحد. حياتي كلها انقلبت رأسًا على عقب. لم أعد الشخص الذي يعرفونه."

نظر إلى المعالج، وكأنّ ألما دفينا يطفو على السطح:

- "أنا أعلم... ربما لن تصدقني. لكنني واثق، هناك عمل سحري رُشَّ على الباب لكي أتخطاه، وعندما فعلت، تلبسني ذلك الجني. منذ ذلك اليوم وأنا أعاني من كل

هذا. هذه المرأة، أنا متأكد أنها هي، أرادت أن تدمرني، أرادت أن تغيّر حياتي."

صمت المعالج للحظات، محاولاً استيعاب ما سمع، ثم سأل بلطف:

- "وما الذي يجعلك متأكدًا أنها هي من فعلت ذلك؟"

تحرك مرعي باضطراب، وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة. قال بصوتٍ منخفض:

- "رأيتها... في صباح اليوم السابق للحادثة، رأيتها تقف بجوار بيتي. كانت تنظر إلى الباب ثم تلتفت بسرعة عندما لاحظتني قادمًا. لم أفكر في الأمر حينها. لكن الآن، بعد كل ما حدث، ربطت الأحداث. منذ ذلك الوقت، لم أعد أنا نفسي. جسدي وروحي وكأنهما في قبضة شيء لا أستطيع التخلص منه."

تنهّد مرة أخرى، وكأن الألم يعتصره من الداخل. ثم همس بصوت

بالكاد يُسمع:

- "أعلم أن الأمر يبدو جنونيًا، لكنني أشعر بأنني ضائع. أريد أن أعود كما كنت. أريد أن أتحرر من هذا العبء. أريد أن أعيش حياة طبيعية."

المعالج النفسي لم ينطق، فقط أومأ برأسه، كأنه يعطيه فرصة ليخرج كل ما بداخله. مرعي أخذ نفسًا عميقًا، ثم أكمل:

- "أعرف أن الحل قد يكون في إيجاد هذا السحر، في تدميره، لكنني لا أعرف من أين أبدأ. هل أذهب إلى مشعوذ؟ هل أواجه هذه المرأة؟ لا أعلم... كل ما أعرفه هو أنني لا أريد أن أستمر في هذا الكابوس."

كان صوته يختنق في النهاية، وكأنه على وشك الانهيار. كان من الواضح أن هذا الجرح أعمق مما بدا عليه، وأنه في حاجة ماسة إلى أي ضوء في هذا النفق المظلم الذي وجد نفسه فيه. المعالج نظر إليه بتعاطف، وقال بهدوء:

- "لنبدأ بفهم مشاعرك. هذه التجربة قاسية، وأنت لست وحدك فيها. دعنا نعمل معًا على اكتشاف طريقة تعيد لك السيطرة على حياتك، خطوة بخطوة."

وفي تلك اللحظة، بدا وكأن مرعي، لأول مرة منذ زمنٍ طويل، شعر بشيء من الأمل.

[11]

...جلست عفاف على الكرسي أمام المعالج، كأنها طائرٌ حبيسٌ في قفص ضيق، عيونها تتنقل بين أركان الغرفة كمن يبحث عن مخرج لا وجود له. تنفست بعمق، ثم بدأت تتكلم بتردد، وكأن الكلمات ثقيلةٌ عليها:

- "دكتور، والله لا أدري ماذا يحدث لي. معدتي تؤلمني منذ زمن طويل. جرّبت كل ما في الصيدليات، كل ما أوصاني به الأطباء، وما من شيء يخفف هذا الألم الصعب."

المعالج النفسي مال بجسده للأمام، وقال:

- "أخبريني، متى بدأ كل هذا؟ هل حدث أمرٌ غريب في تلك الفترة؟ شيء غير مألوف؟"

عفاف، فكرت قليلًا، وكأنها تعيد فتح صندوق مليء بالذكريات المنسية، ثم قالت:

- "في الحقيقة، نعم. أذكر الآن، قبل أن يبدأ كل هذا، تناولت الطعام عند جارتنا، تلك العجوز. هي امرأة... كيف أقولها... دائمًا ما كانت نظراتها تثير الشك، عيناها تراقبني وكأنها تريد معرفة ما في قلبي. دعَتني ذات يوم لتناول الغداء، ولم أشك بشيء حينها. أكلت عندها... ومنذ ذلك الحين، الألم بدأ."

المعالج رفع حاجبيه قليلًا، وكأن كلامه أيقظ فيه فضولًا:

- "إذن، تعتقدي أن لهذا علاقة؟ هل حاولت التحدث معها؟"

عفاف هزت رأسها بسرعة، وعيناها تلمعان بالخوف:

- "لا، بالطبع لا! كيف لي أن أفعل ذلك؟ لكن بعد أن بدأت أعاني، انتشرت الأقاويل في الحي، وقال لي أحدهم :(لا بد أنها وضعت لك سحرًا في الطعام! ربما رشت شيئًا، ربما تعمدت أن تصيبك بالضرر.) لم أصدّقهم في البداية، ضحكتُ على كلامهم. لكن... دكتور، الألم يرفض أن يزول! إنه يمزقني."

المعالج النفسي صمت قليلًا، ثم قال بهدوء:

- "هل فكرت بالذهاب إلى طبيب آخر؟ أو ربما القيام بفحوصات جديدة؟"

ضحكت عفاف ضحكة مريرة، وكأنها تسخر من نفسها:

- "يا دكتور، ذهبت إلى أطباء كثيرين، كل واحد بُعْدَ الآخر، وكلهم قالوا لي إنني سليمة، لا شيء في جسدي. جرّبت الأعشاب، جرّبت الصيام، جرّبت كل شيء يخطر على بالك. ثم قال لي أحدهم: (الأدوية لن تنفعك، عليك بالذهاب إلى امرأة عجوز تعيش في أطراف المدينة، تعرف بفكّ الأعمال السحرية. هي الوحيدة التي يمكنها مساعدتك)."

المعالج نظر إليها بعمق، ثم سأله:

- "وهل ذهبت إليها؟"

عفاف تنهدت، وكأنما تئن من ثقل الحيرة:

- "لا، لم أذهب. لكنني أفكر في الأمر كل يوم، كل ساعة. أحيانًا أقول لنفسي :اذهبي، ما الذي تخسريه؟ وأحيانًا أخرى أقول :هل ستصدقين هذه الخرافات؟ لكن ماذا أفعل؟ الألم يأكلني من الداخل، وكأن هناك قوة لا

أستطيع فهمها تسيطر على حياتي. يقولون إنها تملك ماءً سحريًا، وتستخدم تعاويذ تُبطل مفعول السحر خاصة المأكول. قالوا لي :اشربي من هذا الماء، وستشفي. ستعودين إلى حياتك الطبيعية."

فقال المعالج النفسي:

- "إذن، أنت عالقة بين خيارين: أن تثقي بما قالوه لك، أو أن تبقي متمسكة بمنطقك. أخبريني، ما الذي يمنعك من الذهاب إليها؟"

عفاف اجابت بصوت مبحوح:

- "الخوف... نعم، الخوف. أخاف أن أصدق، أخاف أن أضع أملي في شيء لا أفهمه، وأن أنقاد خلفه كالأعمى. أخاف أن أذهب ولا أجد الشفاء. لكن في الوقت ذاته، أخاف أن أترك نفسي لهذا الألم... أخاف أن يستمر هذا الكابوس."

فرد المعالج بلطف:

- "هذا الصراع بين العقل والقلب، بين المنطق والرغبة في الراحة، هو ما يسبب لك المزيد من الألم. لكن،

لنترك قرارك لوقت لاحق. لا يجب أن تدفعك الحيرة إلى اتخاذ خطوات أنت غير مستعدة لها."

تكلمت عفاف بحيرة:

- "لكن إلى متى سأبقى هكذا؟ إلى متى سأظل مطاردة بهذا الشك؟"

ابتسم المعالج النفسي ابتسامة خفيفة وقال:

- "سنحاول أن نجد طريقًا آخر. ما رأيك أن نبدأ بتحليل ما تشعرين به؟ إذا كان هذا الألم مرتبطًا بخوفك، أو حتى بإيمانك بشيء غامض، سنحاول أن نفكّر بطريقة هادئة، متعقلة."

هزت عفاف رأسها ببطء:

- "لعلني فقط بحاجة إلى أن أشعر أنني لست وحدي في هذا الطريق، أن أحدًا يشاركني حيرتي."

تكلم المعالج:

- "وأنت لست وحدك. نحن معًا، سنبحث عن حل. إذا كان هناك ظلام، سنحاول أن نضيء ولو شمعة صغيرة فيه. المهم ألا تتركي نفسك فريسة لهذا الألم."

في تلك اللحظة، تلمعت عينا عفاف ببصيص من الأمل، شعورٌ جديد كأنه لمسها لأول مرة منذ فترة طويلة. وكأن كل تلك الشكوك والهواجس بدأت تتبدد ببطء، وكأن هناك طريقًا يمكن أن تسلكه، طريقًا يعيدها إلى ذاتها، ولو كان محفوفًا بالمجهول.

[12]

... كان ذلك الرجل، في يوم من الأيام، شعلة من الحيوية والبهجة، مركزًا للحياة في كل مكان يحل فيه. أينما ذهب، ترافقه الضحكات، وتتناثر حوله الابتسامات، كأن حضوره كان مرهمًا يشفي الجراح، وصوته الموسيقي يضفي على اللحظات العادية نكهةً من الحلاوة والمرح. أصدقاؤه كانوا كُثر، يلتفون حوله كما تحوم الفراشات حول الزهور، وكان يُضفي إلى كل مجلس نكهةً خاصة، يشد الجميع بحكاياته الطريفة، ويترك أثراً طيباً في نفوس من يلقاه.

ثم، فجأة، كأن ضوءًا خافتًا انطفأ في داخله، وكأن شخصًا آخر حلّ مكانه. الرجل الاجتماعي، المحب للحياة، الذي كان يُضفي على الجميع دفئًا، اختفى كأنه لم يكن، واستحال طيفًا باهتًا، ذكرى باهتة لابتسامةٍ كانت تضج بالحياة. انقطع عن العالم، تحولت ضحكاته إلى همسات خافتة، ثم إلى صمت مطبق. توقف عن العمل، انسحب من المجالس، وشيئًا فشيئًا بدأ

يختفي، كأنه يغرق في بحر من ظلام كثيف، لا تراه العين، لكنك تشعر بعمقه وقسوته.

أهله، في بداية الأمر، لم يفهموا ما الذي يجري. تساءلوا، حاولوا الاقتراب منه، لكن حواجز غير مرئية كانت تزداد ارتفاعًا بينه وبينهم. بدا كأن روحه تتآكل ببطء، ينسحب من الحياة، ينكمش على ذاته، عيناه الزائغتان تحكيان قصة لم يعرفوا كيف يقرأونها. هل هي الكآبة؟ هل هو الحزن؟ أم أن هناك شيئًا أكبر، أعمق، شيء يشبه الهاوية التي لا قاع لها، تجذب روحه إليها؟ كانوا يرونه يقضي أيامه متسمرا في مكانه، كأن شيئًا ما يهمس له، يأسره في أفكاره. كان يجلس في زاوية غرفته، يحدق في الفراغ، عيناه تائهتان، وكأنه يحاور عالماً لا يراه أحد سواه.

وفي لحظة من لحظات القلق واليأس، قرروا أن يفعلوا شيئًا.

- "لا يمكننا تركه هكذا"، قال أحدهم، "لابد أن هناك من يستطيع مساعدته."

لكنهم لم يفكروا بالذهاب إلى طبيب مختص، أو معالج نفسي، بل حملوه إلى شيخ معروف في البلدة، رجل اعتادوا اللجوء إليه في كل أمر لا تفسير له. رجل يمكنه وفك العمل والسحر.

استقبلهم الشيخ بنظرة عميقة، ثم طلب منهم أن يحضروا ابنهم أمامه. نظر إليه طويلاً، لم ينبس ببنت شفة. عيون الشيخ كانت تتفحصه كأنها تحاول كشف غموض روحه، ثم قال بنبرة حازمة:

- "ابنكم عنده مس". لقد سكنه جنيٌ خبيث، يُفسد عليه عقله، ويغرقه في دوامة من الهمسات والوساوس."

صُدم الأهل، قلوبهم كانت تنبض خوفًا وقلقًا، ولكنهم لم يشكوا لحظة في كلام الشيخ. هو يعرف، وهم لا يعرفون. إذا قال إن جنياً يتلبس روح ابنهم، فلا بد أنه كذلك.

بدأ الشيخ بعلاجه، قرأ عليه آياتٍ من القرآن، تمتم بكلمات غير مفهومة، نفخ في الهواء، ومرر يديه بحركات غريبة، ثم أعطاه زجاجة صغيرة من الماء، قائلاً:

- "هذا ماءٌ مقروء عليه، سيطرد الجني من جسده، وسيعود إلى حاله، وزيت ادهنوه به".

كان الأهل يمتلئون بالأمل، شرب الابن من الماء، ودهن الزيت، ورشّوا غرفته به، وقرأوا عليه التعويذات كما أوصاهم. لكن

شيئًا لم يتغير. عاد الابن إلى صمته، إلى انكماشه. عيناه ظلتا زائغتين، وكأنهما معلقتان على حافة عالمٍ آخر.

مرت الأيام، والأمل بدأ يتبخر كضباب شتائي. "لماذا لا يعود كما كان؟" همس أحدهم، لكنهم لم يفكروا أبدًا بالذهاب إلى طبيب حقيقي. "لابد أن الجني عنيد، ربما يحتاج وقتًا أطول." قالوا، واقتنعوا بكلماتهم. كانوا يتمسكون بأمل هش، يتداعى مع كل يوم يمرّ، لكنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون.

وذات صباح، كان كل شيء هادئًا بشكلٍ غريب في المنزل. شعروا كأن سحابة من صمت ثقيل تخيم على الأجواء. انتظروا أن يخرج ابنهم من غرفته، لكن الباب ظل مغلقًا. نادوا عليه، طرقوا الباب، لكن لا إجابة. تصاعد الخوف في صدورهم كلهيب يلتهمهم. اندفع أحدهم وفتح الباب بقوة.

وهناك، في منتصف الغرفة، وجدوه. جسده معلقٌ بحبل يتدلى من السقف. عينيه اللتان كانتا تائهتين، غُلقتا للأبد. كل الألم، كل الصراع، كل الجنون... انتهى.

كان جسده يتأرجح بهدوء، كأنه يستريح أخيرًا من العذاب الذي لم يعرفوا كيف يعالجوه .

[13]

... أمل جلست في زاوية الغرفة، جسدها محني كأنها تحاول الاختباء من شيء لا يمكن رؤيته، يداها ترتجفان بين طيات معطفها القديم، وعيناها تتنقلان بخوف بين جدران المكان. كان الألم يسكن في كل جزء من جسدها، لكنه لم يكن مجرد ألم جسدي، بل شعورٌ ثقيل كالصخرة التي تستقر على صدرها، تمنعها من التنفس بحرية. كل نبضة في قلبها كانت تتردد في أذنيها كطبول الموت القريبة، وكأن شيئًا ما ينتظرها خلف ستار الزمن.

بصوت خافت، كمن يخشى أن يسمعه الموت نفسه، بدأت تتحدث:

- "لا أعرف كيف أصفه، إنه كالألم الذي لا يأتي من الجسد وحده، بل من مكان أعمق، كأنه يغلي في دمي. كل ليلة، أخشى أن تكون هذه هي الليلة الأخيرة. أغمض عيني ولا أرى إلا السواد، وكأنني في حفرة

عميقة، وكلما حاولت الخروج، شدّني شيء إلى الأسفل".

كانت كلماتها تتساقط مثل أوراق الخريف، كل كلمة تحمل جزءًا من روحها المتعبة. استمرت تتحدث بصوت مختنق، كأن الهواء من حولها أصبح أثقل، يصعب على رئتيها أن تلتقطه.

- "أمي تقول إنني مسحورة،"

كانت كلمات أمل تخرج ببطء، وكأنها كانت تجرّ معها ثقل الزمن الذي مضى وهي تحاول أن تفهم ما يجري حولها.

- "تقول إن هناك عيناً تراقبني، وأن أحدهم يريد لي الشر".

توقفت للحظة، وكأنها كانت تسترجع تلك الليالي الطويلة التي أمضتها في الخوف والتساؤل، وفي قلبها يقبع شعور غامض بأنها ليست وحدها.

- "قالت إن عليّ الذهاب إلى شيخ، إن الشيخ سيخرج مني هذا السحر، وسأعود كما كنت".

قالت، وعيناها تنظران إلى الأرض.

- "ذهبت إليه... جلست أمامه،"

عادت بذاكرتها إلى تلك الغرفة الصغيرة، حيث جلس الشيخ أمامها. كان الشيخ، برأسه المملوء بالشيب، يتمتم بكلمات غريبة.

- "أعطاني أوراقاً لأحرقها"

تابعت أمل، وكأنها تحكي عن طقس مقدس لم تفهم منه شيئاً. أخذت الأوراق بيديها المرتعشتين، نظرت إلى الشيخ وهو يقول لها إن السحر سينتهي بمجرد أن تشتعل تلك الأوراق، إن النار ستلتهم معها كل قواها المظلمة التي كانت تجثم على صدرها. "قال لي إن السحر سيزول, لكن الألم ما زال، والخوف ما زال يسيطر عليّ".

كانت كلماتها الأخيرة ثقيلة، كأنها سقطت على الأرض وأحدثت صدى في الغرفة. لم تكن مجرد كلمات تصف تجربة، بل كانت اعترافًا مريرًا بأن الأمل الذي حملته معها إلى ذلك الشيخ قد تبخر مثل الرماد الذي خلّفه احتراق الأوراق.

في تلك اللحظة، رفعت عينيها أخيرًا، وكأنها تبحث عن إجابة في وجه المعالج النفسي الذي كان يستمع إليها بصمت.

توقفت للحظة، ثم نظرت إلى المعالج النفسي وكأنها تطلب منه تفسيراً لما تعيشه، كطفل ضائع ينتظر من يرشده للطريق.

- "لماذا لم يتغير شيء؟ لماذا لا أزال أشعر بهذا الخوف؟"

المعالج النفسي، بعينيه اللتين تنضحان بالهدوء والتعاطف، استمع بصمت. كان يعلم أن كل كلمة نطقت بها كانت أشبه بشظية خرجت من صدرها، وكل جملة كانت تعبيرًا عن معركة داخلية تخوضها وحيدة منذ زمن. وعندما انتهت، أخذ لحظة ليختار كلماته بعناية، كما يفعل شاعر ينظم قصيدة عن الألم والرجاء في آن واحد.

- " ما تمرين به ليس سهلاً. إنه ليس سحرًا بالمعنى الذي تتحدث عنه أمك، بل هو نوع من القلق، خوف متجذر في داخلك يجعل كل يوم يبدو كأنه معركة. أحيانًا، عندما نخاف من شيء، نراه في كل زاوية من حياتنا، حتى في جسدنا. دعينا نعمل معًا على فهم هذا الخوف، على مواجهته ببطء، وبتأنٍ. لستِ وحدك في هذا، وسنجد طريقاً للخروج".

كانت كلماته أشبه بنور خافت يتسلل إلى زاوية مظلمة في قلب أمل. ورغم أن الألم والخوف لم يختفيا فجأة، إلا أن شيئاً بداخلها بدأ يتحرك، وكأن بذرة صغيرة زرعت في تربة نفسها القاحلة. لحظة من الصمت مرت، ثم أخذت أمل نفساً عميقاً، وكأنها للمرة الأولى منذ زمن بعيد تستطيع التنفس دون أن يخنقها القلق.

في هذه اللحظة، بدت وكأنها تتلمس طريقها للخروج من المتاهة، طريق قد يكون طويلاً، لكنه على الأقل صار مرئياً، ولو بشكل خافت، مثل بصيص ضوء يظهر بعيدًا في نهاية نفق مظلم، ولكنه موجود، ولا يزال ينبض بالحياة.

[14]

....جلس الأب أمام المعالج النفسي، نظراته تائهة بين الماضي والحاضر، يحمل بين يديه عبء السنوات التي مرت كسحابة داكنة فوق بيتهم، وكأن قلبه لم يعد يحتمل ثقل الألم. أخذ نفسًا عميقًا، وكأن الهواء ذاته أصبح أثقل من أن يسكن صدره المتعب. ثم بصوتٍ هادئ مثقل بالذكريات، قال:

- "سعاد، ابنتي الحبيبة... كانت نور بيتنا، وجهها مشرق كصباح ربيع هادئ. لكن شيئًا ما تغير. كانت في السادسة عشرة عندما بدأنا نلاحظ تلك التغيرات، تغيرات صغيرة في البداية، ثم سرعان ما تحولت إلى طوفانٍ من الغموض والخوف. أصبحت تنظر إلينا كأننا غرباء، تسمع أصواتًا لا نسمعها، ترى ظلالًا لا وجود لها".

توقف للحظة، وكأن الكلمات تتعثر في حلقه، بينما عينيه تغشاهما لمعة الحزن.

- "أمها كانت أول من اقترح أننا يجب أن نذهب بها إلى شيخ. قالت إن ما يحدث لا يمكن تفسيره إلا بالعين أو السحر. وأنا... ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ كنتُ أبحث عن أي بصيص أمل، أي شيء يعيد إلينا ابنتنا. ذهبنا إلى شيخ تلو الآخر. كل واحد منهم كان يعطينا تفسيرًا مختلفًا، وكلهم قالوا إنها مسحورة، وإن الجن يسيطر عليها. أعطونا مياهًا مباركة، زيوتًا وأوراقًا لنحرقها، لكن"...

أغمض عينيه وكأن ذكرى تلك اللحظات تأكل من قلبه شيئًا فشيئًا.

- "كلما فعلنا ما طلبوا، كلما ساءت حالتها أكثر. كان الجنون يتسلل إليها ببطء، يغزو عقلها وروحها. أصبحت تبتعد عنا أكثر فأكثر، حتى أننا لم نعد نعرفها. كانت الصرخات التي تطلقها في الليل تمزق قلبنا،

وكأنها تستغيث بشيء لا نراه. كل ليلة كانت كالكابوس".

الدموع بدأت تتجمع في عينيه، لكنه أبقاها حبيسة جفنيه، كما حبس ألم السنين الطويلة.

- "في النهاية، لم أعد أعرف إلى أين أذهب. الشيوخ جميعهم قالوا إنها ممسوسة، لكنني لم أعد أستطيع رؤية ابنتي تتلاشى أمام عيني. كان علي أن أجد حلاً".

المعالج النفسي استمع بصبر، عينيه مفعمتان بالتعاطف، لكنه لم يقاطع. ترك الأب يفرغ ما بداخله، كما تفرغ السحب الثقيلة ما تحمله من مطر على أرض عطشى.

- "أعلم أنكم فعلتم كل ما في وسعكم،" قال المعالج بصوت هادئ، يحمل في طياته عمق الفهم والحنان. "ولكن ما تمر به سعاد ليس نتيجة سحر أو جن. هي تعاني من الفصام، وهو مرض نفسي يظهر عادةً في مثل سنها".

الأب نظر إلى المعالج النفسي وكأنه يسمع شيئًا غير مألوف، صوت العقل الذي لم يكن حاضرًا في كل تلك الجلسات الروحانية.

- "الفصام، يا سيدي، هو مرض يؤثر على طريقة تفكير الشخص وتعامله مع الواقع. الأصوات التي تسمعها سعاد، والأشياء التي تراها... كلها أعراض لهذا المرض. ما تحتاجه الآن هو علاج طبي، علاج دوائي يمكن أن يساعدها في السيطرة على هذه الأعراض".

تردد الأب للحظة، وكأن الكلمات لم تصل بعد إلى عقله المثقل بالهموم والخرافات التي سمعها على مر السنوات.

- "هل تعتقد حقًا أن هذا هو الحل؟" سأل بصوت يملؤه الشك والخوف.

المعالج النفسي ابتسم بلطف، وقال:

- "الأمر ليس بسيطًا، لكن مع العلاج الصحيح، يمكن لسعاد أن تتحسن. تحتاجون إلى الذهاب بها إلى المستشفى للحصول على العلاج الدوائي المناسب. مع الوقت، ستشعرون بالفرق".

كانت تلك اللحظة ثقيلة، لحظة انكسار بين الماضي والحاضر. الأب، الذي قضى سنواته الماضية يبحث عن الشفاء في أماكن الظل والظلام، وجد نفسه الآن أمام نور جديد، نور العلم، ولكنه نور يحتاج إلى وقتٍ ليضيء طريقهم المظلم.

رفع الأب رأسه قليلاً، وكأنه رأى في كلمات المعالج النفسي بريقًا خافتًا من الأمل، لكن قلبه كان لا يزال يئن من وجع الفراق عن ابنته التي يعرفها، الفراق الذي لا يعوضه إلا استعادة توازنها وعافيتها.

تم بحمد الله

من هو المؤلف؟

الدكتور بديع عبد العزيز محمد القشاعلة هو مفكر وباحث فلسطيني من النقب، يمتلك تجربة علمية وثقافية غنية تمتد عبر مجالات متعدّدة، تتراوح بين التربية، وعلم النفس، والأدب. واصل تعليمه العالي في جامعة سانت بطرسبرغ العريقة في روسيا، حيث حصل على درجة الدكتوراه في علم النفس، لتصبح تلك المرحلة نقطة انطلاق لرحلة علمية وأدبية أثرت الساحة الفكرية والأدبية. تميّز الدكتور القشاعلة بقدرته على المزج بين العلم والأدب، فكتب في موضوعات علمية عميقة تشمل علم النفس الإيجابي، ومشاكل التعلّم، وعنف المدارس، واضطرابات الانتباه، وطرق التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة. بأسلوبه المتفرّد، قدّم هذه الموضوعات بحسٍّ أدبي راقٍ، يجذب القارئ ويُحفّزه على التفكير والتأمل.

كما لم يغفل الجانب الإبداعي، إذ برز كشاعر وكاتب للأطفال، يمتلك قدرة على دمج المعرفة بالخيال، ليقدّم قصصًا ومقالات تحاكي عقل الطفل وتغرس فيه قيمًا تعليمية وإنسانية رفيعة. في كل كلمة، يسعى الدكتور القشاعلة لتقديم رؤى جديدة في

التعليم والتربية، مؤمنًا بأن دور العلم لا يقتصر على اكتساب المعرفة فقط، بل على تحويلها إلى أدوات لبناء أجيال واعية ومجتمعات قادرة على الابتكار والنهوض.